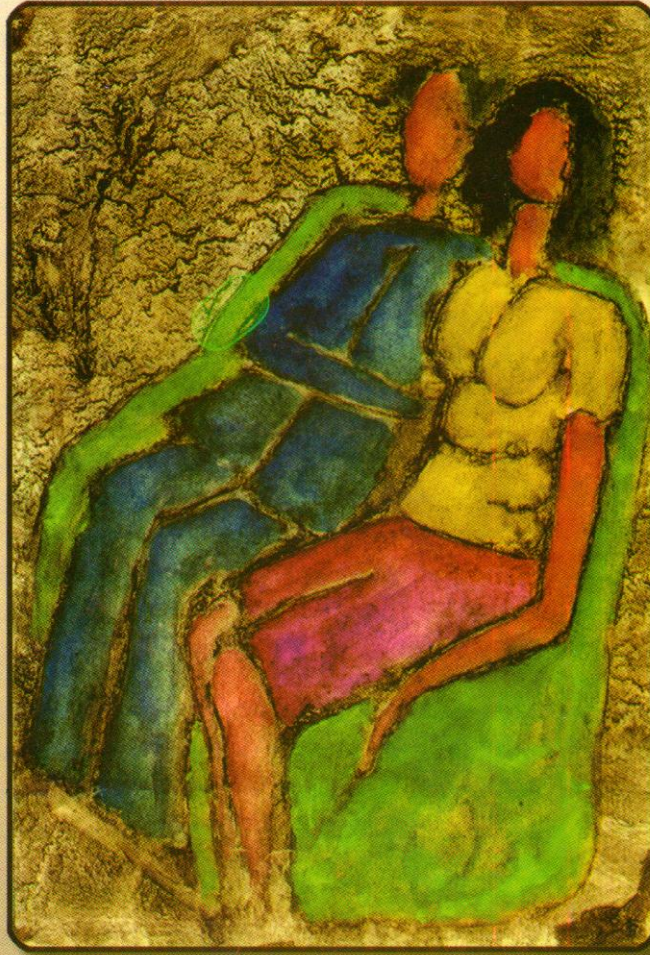


ممدوح حماده

# المحطة الأخيرة



دارعلاءالدين منشورات دارعلاءالدين

قصة

## المحطة الأخيرة

مدوم حمادة

# المحطة الأخيرة

منشورات دار علماء الدين

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

دمشق ١٩٩٩

الطبعة الأولى ١٠٠٠

---

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

دمشق ص.ب - ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

فاكس : ٥٦١٣٢٤١ - ٢٣١٧١٥٩

---

رغم الازدحام الذي كان يملأ فراغ العربة، ورغم الضجيج الذي كان يخلخل فضاء محطة المترو، فإن دخولها خلق حالة من الدهشة طعنت الازدحام والضجيج، لقد كان لها جمال لا يمكن له إلا أن يُهمّش كل ما يحيط به من الظواهر.

التفت الجميع بأنظارهم نحوها، وحتى أولئك الذين كانوا يديرون ظهورهم التفتوا إليها بدافع الفضول بعد الخلخلة التي حدثت.

جمالها النادر أثار الإعجاب والرغبة لدى الشباب، والحسرة لدى الشباب، والحسد في نفوس النساء في عربة المترو، إنها امرأة كُسرَ قلبها فعلا، امرأة لا يوجد منها في هذا الكون سوى نسخة واحدة. هذا الاهتمام المبالغ فيه الذي قابلها به ركاب العربة لم يثر في نفسها السرور على ما يبدو، فقد جفلت للحظة وشعرت بالارتباك وتململت في مكانها ثم استدارت نحو الباب ربما محاولة الهرب من البؤرة التي تجمعت فيها حدقات العيون، ولكن مصراعي الباب انطبقا أمامها فقطعا عليها الطريق. لقد كان جمالها مصدر إحراج لها، وربما شكل لها عقدة تشبه عقدة أصحاب العاهات، فقد كان جمالاً فائضاً عن الحدود المعهودة، جمالاً مكثفاً يبهر الآخرين إلى حد الصدمة، ولكنه لصاحبه لا يختلف عن السمنة الزائدة أو الطول أو القصر الزائد، وربما كانت بخلاف جميع النسوة اللواتي يرمقنها في حسد تتمنى ألا ينظر إليها أحد.

أنا أخذت أتجول فوق أجزاء جسدها بنهم ودون ترتيب، لقد كان من الصعب جداً تحديد مكنم الجمال فيها، فإن قلت وجهها ظلمت عنقها وإن قلت العنق ظلمت الصدر وإن قلت الصدر ظلمت

الخصر، حتى أنامل قدميها التي كانت تطل من فتحتين صغيرتين في فردتي حذاءها كما لو كانت توائم جميلة غفت في أسرتها، كانت تقطر جمالاً، كانت كسلسلة مترابطة الحلقات، لا تتقلّ إحداها قيمة عن الأخرى، وكان يستحيل على العينين ألا تحكماهما الفوضى في استعراض هذه الحلقات، فقد كان يصعب التركيز على نقطة ما.

لم يحدث أن حدثت قبل بمثل هذه الشجاعة التي لم أعهد لها في نفسي سابقاً، فأنا وإن كنت قد استرقت الكثير من النظرات الخاطفة إلى سيقان امرأة لعب الهواة في حنايا ثوبها، أو إلى جسد امرأة دُكَّ في الثياب حتى رُسِمَتْ حدوده، أو إلى صدر نمر من تحت قميص أو إلى أشياء أخرى من هذا القبيل، إلا أن أحداً لم يشعر بذلك، لقد كانت جميع تلك النظرات خاطفة لدرجة أنني لم أضبط بالجرم المشهود ولو مرة واحدة.

لقد كنت دائماً أهدق إلى الأرض، كان (أناي الأعلى) يطبق على جمجمتي بقبضة فولاذية يحني بها رقبتني إلى الأسفل، كان يجثم على صدري ويكاد يكتم أنفاسي، أسوأ شرطي قابلته في حياتي كان (أناي الأعلى) الذي كان يصدر أحكاماً مسبقة بالإعدام على كافة قراراتي، فما إن تولد الفكرة حتى يكون قد لف على عنقها حبل مشنفته المجدول، ولم تكن تنفع محاولاتي اليائسة في إنقاذها فقد كان يدفع الكرسي من تحت قدميها دون أن يعيرني أي اهتمام، فأنا وإن كنت أشكل الأكثرية في الكل الذي نتقاسمه، إلا أن ذلك كان شكلياً تماماً، فقد كان (أناي الأعلى) يحتل كل المواقع المفتاحية في سلوكي، كان أشبه ما يكون بسلطة احتلال، بل كان محتلاً حقيقياً استعمرني وفرض عليّ حالة الأحكام العرفية، لقد كان مجرماً بحقي وأنا أعتبره مسؤولاً عن كافة إخفاقاتي وأحلامي المبتورة وعن كل المصائب التي حلت بي.

في أحد الشتاءات البعيدة كنت أتجاوز الدرب المؤدي إلى غرفتي في الحي الذي كنت أقطنه، وكان مستنقع كبير قد أغرق الدرب مما جعل العبور أمراً في غاية الصعوبة، ولذلك فقد كان المارة يتجاوزون

المستتق متقلبين فوق خُفَّانات تبدو أسطحها من تحت الماء العكر كجزر صغيرة، وكان قد رصفها أحدهم بملاصقة الجدار المحاذي للشارع خصيصاً لهذا الغرض، وهذا ما فعلته أنا أيضاً، حيث توجهت إلى تلك الخفانات، لقد كانت قريبة من الجداريشكل يفرض على الإنسان أن يسير جانبياً، وجهه للجدار وظهره للشارع أو العكس، أما أنا فقد اخترت أن يكون وجهي للجدار لأن هناك نتوءات يمكن أن أتشبث بها في حال اختلال توازني، ومعظم المارة كانوا يفعلون ذلك، وفي الطريق بزغت أمام وجهي كوة زجاجية صغيرة ينبعث منها ضوء خافت لحمام كان في داخله امرأة عارية تجلس فوق كرسي خشبي منخفض تسكب الماء على شعرها الأسود الذي ابتل وانسدل من حول كتفيها على نهدائها العاريين، وكانت تفرك رأسها بالصابون الذي غطت رغوته وجهها فجعلتها تغمض عينيها، تجمد وجهي قبالة الكوة وتشبثت يداي بالجدار وتأمّلت عيناى للحظة لوحة من أجمل اللوحات التي رأيتها في حياتي، فقد كان لها جسد يستحق الفرجة، ولكن (أناي الأعلى) دق بكعب حدائه على رأسي فجعلني أترجل عن الخفانة وأخوض ما تبقى من المستتق بحذائي الجديد الذي كان ذلك آخر مشوار له.

عندما أغلقت باب غرفتي خلفي كنت أعتقد أن أمر المرأة المستحمة قد انتهى، ولكنني كنت على خطأ فقد كان (أناي الأعلى) ينتظر مني مبادرة في خصوص هذا الموضوع، وبما أنني لم أبادر فقد أضطرّ لسؤالي وأنا أخلع حدائي :

- أَلن تفعل شيئاً ؟

لهجته الهادئة التي طرح بها سؤاله لم تدفعني للبحث عن خلفيات ذلك السؤال، ولذلك فقد أجبته بهدوء أيضاً :

- لا ... أريد فقط أن أستلقي قليلاً، فأنا متعب.

أما هو فقد صمت للحظة كتم بها أنفاسه ثم نفثها دفعة واحدة صارخاً وكأنه يتحدث عن مصيبة :

- وذلك الرجل الصالح ؟

و لم أفهم فحوى كلامه فسألته :

- أي رجل ؟

فأجابني بنبرة فيها مزيج من الحزن المصطنع واللوم :

- زوج تلك المرأة الفاضلة.

و كنت قد نسيت موضوع الكوة الزجاجية فلم أفهم عن أي امرأة يتحدث، مما دفعني للاستفسار :

- أي امرأة ؟

فانفجر مؤنباً :

- لو كانت زوجتك هي التي تجلس في الحمام لما نسيت الأمر بهذه السرعة.

وعندما فهمت عما يتحدث لوحت بيدي للدلالة على سخف الموضوع وأعربت له أن الأمر لا يستحق كل هذا الاهتمام ثم نفضت قدمي اليمنى فطارت فردة الحذاء لتستقر في الزاوية، أما هو فقد تابع بعينه طيران الحذاء والدهشة تعلو وجهه ثم انفجر في شكل هيسستيري وأخذ يوجه لي أقذع الشتائم متناسياً أنه ( أنا أعلى ) ولا يجوز له أن يستخدم مفرداتٍ بذيئة، كان في هذه الحالات يشبهه (أنا الأسفل ) تماماً ولم يكن يختلف عنه بشئ وكان من العبث تذكيره بذلك وهو على هذه الحال، حيث يمكن للأمر أن يتفاقم، ولذلك فقد انتظرت حتى هدأ تماماً فأكدت له أن الأمر لا يدعو كونه مصادفةً وأنني لم أكن أقصد النظر إلى تلك المرأة وأنني في المرات القادمة سأخوض المستنقع ولن أسير فوق الخفانات حتى ولو كانت الوحول للرقبة، مما دفعه لنعتي بالغباء، فهو كما تبين لاحقاً لم يكن قلقاً لأنني لمحت المرأة في ذلك الوضع، فلدي ( أنا أعلى ) متميز - كان دائماً يصف نفسه بالتميز فهو لم يكن يعاني من التواضع أبداً - ولكن الذي يقلقه هو بقية المارة الذين ربما كانوا يفتقدون أساساً إلى ( أنا أعلى ) في مستواه هو، ولا بد أن الكثيرين منهم قد تهادوا في النظر إلى التفاصيل المحرمة لجسد تلك المرأة المسكينة، وكانت الدموع تنهمر من عينيه وهو يصف ما يمكن أن يفعله هؤلاء فربما قام أحدهم



بتصوير نهديها المتكورين، وربما يكون أحدهم الآن يتحدث لأصحابه عن ساقبها البضتين وربما تقاطر أصحابه للاستمتاع بمشاهدتها، وربما، وربما، وربما، وأطلق العنان لخياله المريض، وقد كنت أحس، لا بل كنت متأكداً أنه كان يشعر بنشوى عندما كان يتحدث عن تلك الوقائع التي يتخيل أنها ربما حدثت. وفي نهاية المطاف كنت مضطراً للاقتناع بوجهة نظره فطلبت منه إرشادي لما عليّ فعله فقال :

- اذهب وأخبر الرجل.

فصرخت في وجهه:

- جننت؟! فقال :

- وهل تريد ترك الأنجاس ينتهكون بأعينهم عرض الرجل!؟

(كان الأنجاس حسب تصنيفه أولئك الذين يعانون من وَهْنٍ في (الأنا الأعلى)

- لا ولكن توجد طريقة أخرى لتلافي الأمر.

واقترحت عليه رمي ذلك الزجاج بحجر يكسره وينبه صاحب المنزل للأمر، فتجمد من الدهشة وأحدث اقتراحي في نفسه وقع الصاعقة ثم وبعد جفول له طابع الاستكار استمر للحظات، أخذ يعدد لي الاحتمالات التي يمكن أن تنتج عن مثل ذلك الفعل :

( افترض أن أحدهم كان يقف تحت الكوة فسقط الزجاج على رأسه فقتله، وافترض أن هذا الشخص

أب لسبعة أطفال، وأمّ لهم وتخيل باقي القصة ).

( افترض أن أحداً رآك وأنت ترمي الكوة بالحجر، بأي لون سيمتقع وجهك من الخجل عندها ؟ ).

الافتراضات كانت كثيرة وكلها كانت سوداء، الافتراض الوحيد الذي كان مستحيل الحدوث هو أن أكسر الزجاج دون عواقب. ولذلك وفي وقت متأخر من الليل رضخت له نهائياً ووافقت على إخبار الرجل بالأمر فأنبني لأنني بددت الوقت هباءً في النقاش البيزنطي الذي لا جدوى منه، وسمح لي أن أوّجّل الموضوع حتى الصباح.

في الصباح قرعت باب الرجل ففتح لي واستقبلني بابتسامة ودودة فوق وجه طافح بالطيبة يدل على أنه رجل صالح فعلاً وعلى أنه قد حجز لنفسه مكاناً في الجنة، وقبل أن ألقى تحيتي كان قد ردها واقتادني إلى غرفة الضيوف في منزله المتواضع ولكن النظيف جداً.

عندما أنهى عبارات الترحاب التي استقبلني بها كنت قد غرقت في الكنبه المخملية وكان هو قد أشعل المدفأة في تلك الغرفة الرطبة التي كانت طبقات الحوار قد تشكلت فوق سقفها الإسمنتي العاري. تبين أن الرجل يعرف عني الكثير وأنه منذ زمن بعيد يتحين الفرصة لدعوتي، وأظن في خلع الصفات الحميدة على شخصي الذي يعتبره الجيران نموذجاً مثالياً للعازب الصالح، كانت العفوية التي تتدفق بها كلماته تدل على صدق كلامه وعلى قربي من قلبه مما جعلني أشعر بحرج كبير في فتح الموضوع، وأخذت أبحث عن حجة أبرر بها زيارتي له، غير أن أناي الأعلى ركني على نافوخي بكعب بسطاره:

- لا تتراجع عن تنفيذ المهمة التي جئت من أجلها.
  - قالها بلهجة أمره لا تقبل النقاش، فقلت محاولاً إثارة الشفقة في نفسه على الرجل :
  - أخشى أن أصدمه، إن روحه أصفى من ماء النبع.
  - ليعرف منك أفضل من أن يعرف من غيرك، إنه يثق بك وسيقفمك بالتأكيد.
- و كنت أعرف أنه لن يسمح لي بالخروج قبل أن أنفذ ما كلفني به ولذلك فقد قصرت النقاش و وافقت معه.

تتحنت عدة مرات وأخذ العرق يتصبب مني بسبب الإحراج، مما دفع بالرجل إلى تخفيف قطرات المازوت المتساقطة إلى محرقة المدفأة العتيقة وكيل المديح لها وللايقان الذي صنعت به وكيل اللوم للمدافئ الحديثة التي يصنعونها هذه الأيام والتي لا تفعل شيئاً سوى خنقنا بالدخان ولا تصمد أكثر من شتاء واحد فوافقت القول وانتهزت فرصة الحديث عن الشتاء للحديث عن المستقع فقاطعني وأخذ يكيل

اللوم للبلدية التي طمرها بشكاواه وعرائضه المتعلقة بالموضوع وشرح لي كيف قام برصف الخفانات قرب الجدار لكي يتمكن الجيران من العبور دون بلل.

- ما كان ينبغي أن تفعل ذلك.

قلت باقتضاب مثير للفضول معتقداً أنني أمسكت بطرف الخيط ، ولكنه لم يشعر بالفضول أبداً وأكد أن فعل الخير لا يحتاج إلى مقابل و ضرب لي الكثير من الأمثلة عن التعاضد وانعكاساته الإيجابية على المجتمع فوافقته ولمحنتُ له أنه كان من الأفضل لو وضع الخفانات بعيداً عن الحائط وأضيفت على نبرتي مسحة غموض تثير الفضول، ولكن ذلك لم يحدث، حيث تحول هو إلى مهندس سدود وأخذ يشرح لي أن منسوب المياه بعيد عن الحائط أعلى من مستوى الخفانات وأن قرب الخفانات من الحائط يساعد على الاستناد والحفاظ على التوازن وأسهب في الشرح بشكل أثار في نفسي القرف.

بذلت قصارى جهدي ساعتين كاملتين لكي أجره إلى الموضوع دون إحداث صدمة له ولكنه في كل مرة كان يقاطعني ويغير مجرى الحديث مما جعلني في نهاية المطاف أدخل في الموضوع مباشرة فقاطعته وقد تملكنتي شجاعة اليائسين.

- عفواً يا أخ. .. أنا جننت إليك في مهمة محددة.

- تفضل. . تفضل.

قال بلهجة رضى وكأني به جهز نفسه لتلبية طلب لي عنده، ولا بد أنني سأعجز عن وصف ردة فعله التي بدأت بدلة القهوة المرة التي هوى بها على رأسي فأحدث كعبها النحاسي فجأ انساحت منه الدماء غزيرة على وجهي وأذني، ولم تنته بي أتخبط محاولاً النهوض من وحل ذلك المستنقع متحاشياً ركلاته وركلات باقي الرجال الذين تجمعوا للمساهمة في ذلك المهرجان.

أوهم الجميع أنه ضبطني أنلصص على زوجته، وصدقته الجميع رغم أن بعضهم كان قد استرق النظر من تلك الكوة الزجاجية وشاهد ملياً ما شاهدته أنا في عجالة. ونتيجة لتلك المعركة غير

المتكافئة أصيبت كليتي اليمنى التي لا تزال تسبب لي نوبات من الألم الحاد حتى هذا اليوم. ولو توقف الأمر عند ذلك لكان مقبولاً، ولكن المضاعفات كانت أكبر بكثير، فقد استُبدِلَ الزجاج الشفاف لجميع النوافذ المطلة على الشارع بزجاج محجّرٍ أو تم طلاؤه بالألوان المتوفرة وأصبح الشارع وكأن سكانه في حالة حرب، والأُنكى من ذلك أنني صرت منبوذاً، فقد قوطِعتُ من قبل الجميع، لايلقي علي أحد التحية، والبعض لا يتوانى عن التّفّ بقرف ناحيتي، وباختصار فقد أصبحت شخصاً مكروهاً لدرجة أن صاحب المنزل الذي كان يقيم في حي آخر جاء وطلب مني إخلاء الغرفة عند نهاية الشهر إذعاناً منه لضغوطات الجيران الذين أمعنوا في طلب تطهير الشارع من وجودي القذر.

كنت أحاول مقاومة أناي الأعلى في الكثير من الأحيان وكدت أنجح في بعض المرات، ولكنه كان يتغلب عليّ بدهائه وخبرته ولا يتوانى عن استخدام أفذرالأساليب إذا خرجت على إرادته ولا بد أن هيفاء لا تزال تسخر مني حتى هذا التاريخ بسبب أساليبه القذرة تلك، ولها الحق في ذلك.

عام ١٩٨٠ استأجرت غرفة في منزل متواضع مؤلف من غرفتين ومطبخ، وفي الغرفة الأخرى كانت تسكن هيفاء وهي امرأة شابة هجرها زوجها مع أخرى دون أن يطلقها، وقد استقبلتني هيفاء وكأنها تعرفني منذ مئة عام فنظفت الغرفة وربّبتها و قدمت لي صحناً من الطعام، وفي المساء أخذت دون استئذان بعض الملابس المتسخة التي أفرغتها من حقيبتني وسرعان ما تدلت هذه الألبسة على حبل الغسيل، وباختصار فقد تصرفت بشكل جعلني أشعر أيضاً أنني أعرفها منذ ولدت فقد ذابت كل جدران الجليد المفترضة بيننا قبل مغيب شمس ذلك اليوم.

في اليوم الثاني تتابعت عملية انهيار الجدران بيننا، ففي المساء رفعت رأسي فوجدتها بالباب وقد ارتدت ثوباً شفافاً اخترقه الضوء القادم من الخارج فكشف لي كل ما يستتره بشكل مثير للغرائز، جاعلاً الدم يتدفق بقوة إلى جميع خلايا جسدي ويهيجُ الثيران القابعة في زواياه المظلمة، و كدت أفتح لها باب الحظيرة لتخرج و تفعل ما تشاء، ولكن أناي الأعلى ما لبث أن وجّه لي صفعه أطارت الشرر من

عيني وأيقظتني من غفوة أخلاقي، ولم يتوانَ عن تنبيهي بسذاجة بالغه إلى أن المرأة شريفة ولكنها لا تدري أن ثوبها شفافاً، وطلب مني أن أنبهها لذلك فاعترضت على طلبه بحزم وتمنعت عن تنفيذه، وتفهم هوموقفي هذا فلم يكتر من الإلحاح أخذاً بعين الاعتبار قصة مستنقع الوحل الذي لا يزال يلطخ زجاج روحي.

لا أدري كيف تقبلتُ هيفاء تجاهلي لها في ذلك المساء ولكنها لم تُبدِ أي امتعاض، وتابعت استفزازاتها، وكدت أكثر من مرة أستجيب لهذه الاستفزازات الرائعة وأوشكت أكثر من مرة أن أسد راحتي في أماكن مظلمة كخطوة أولى للتورط في حرب مجهولة العواقب، لكن أناي الأعلى كان لي بالمرصاد وكان دائماً يوقفني عند حدي، أما هي فقد كان تمنُّعي يثيرها كما تثير الفريسة البعيدة المنال نمرًا جائع وكانت تتأجج في داخلها نار يكاد وهجها يبدو بالعين المجردة، وفي الثالث عشر من أيلول لم تقوَ هيفاء على احتمال الأمر أكثر من ذلك فقامت بالانقضاض عليّ في سريري، أما أنا فلم أكتفِ بالاستسلام الكامل بل رحبت أشد الترحيب بهذا الهجوم اللذيذ فاحتضنتها وأطبقت بشفتي على شفثتها غير عابئ بصرخات أناي الأعلى الذي جن جنونه لهذا التمرد، مما جعله يهوي بهراوته على رأسي في ضربة أحسست بعدها أن نخاعي تطاير والتصق بالسقف ولكنني لم أعره اهتماماً وتابعت عناقي الحميم وكان كلما ازداد عنفه ضدي كلما ضممتها إليّ أكثر ولم يبق سوى خطوة واحدة لإتمام أركان الخطيئة، وكنت على وشك القيام بتلك الخطوة عندما أخذ أناي الأعلى يسرد على مسمعي أسماء الأمراض الخطيرة التي قد تسببها مثل هذه الاتصالات العابرة، وأخذ يصور لي الموقف فيما لو حدث ذلك فخدمت كل عضلاتي وارتخت وكأنها لبانة سكب فوقها ماء مغلي وانتابني عرق بارد ولم أعد أقوى على فعل شيء، وقمت بمحاولات يائسة لإنقاذ ذكورتني التي تمرغت في الوحل أدركت بعدها أنني لا أستطيع مقاومة أناي الأعلى الذي شلني تماماً، وتمنيت لو أتبخر وأختفي عن ناظري هيفاء التي أخذ القلق يرسم على تعابير وجهها، ولكنني لم أتبخر ولم أختفِ وإنما كنت أشعر بحجم كتلتي يزداد ويأخذ

حيزاً أكبر ويصبح أكثر ثقلاً، ووجدت نفسي مضطراً للاستسلام للأمر الواقع والابتعاد عن هيفاء، ثم جلست مديراً لها ظهري وأشعلت لفافة، أما هي فقد نهضت وارتدت ثوبها حانقة وقالت بلهجة ازدراء:

- كان عليك أن تتبهنى منذ البداية أنك...

وصمتت دون أن تكمل الجملة ملمحةً بصمتها هذا إلى عجزى، ثم انصرفت صافقةً خلفها الباب بانزعاج واضح.

في اليوم التالي لم تقم هيفاء بدعوتي إلى فنجان القهوة الذي اعتادت أن تصبحني به وعند عودتي من العمل ظهراً لم أجد على طاولتي صحن الطعام الذي كانت تضعه لي، كما أن غرفتي لم تكن مرتبة، وغبار و أوساخ وفوضى الأوس كانت لاتزال على حالها، وظلت لبضعة أيام ترد لي التحية بلهجة يشوبها الازدراء، وبعد أسبوع بدأ شبح لرجلٍ مجهول يقفز من فوق الجدار الذي يفصل منزلنا عن المنزل المجاور ويدخل إلى غرفة هيفاء ثم يغادر عند بزوغ الفجر، وفي محاولة أخيرة لانتشال رجولتي من الحفرة التي سَقَطْتُ بها قررت طعن أناي الأعلى في الصميم فقامت بتطويق خصر هيفاء بذراعي وشدها إلى صدري ولو أنها تجاوزت مع مبادرتي هذه لأتممت بكل تأكيد تلك الخطوة الناقصة التي عجزت عنها في السابق، ولكن هيفاء دفعتني عنها وقالت بلهجة حاقدة وعينين شامتتين :

- أنا لا أعطي دروساً خصوصية.

لم أشعر في حياتي بالإهانة كما شعرت بها في تلك الأيام، خاصةً عندما كانت الجارات من صديقات هيفاء ينظرن إليّ وقد كَتَمْنَ ابتساماتٍ خبيثةٍ جعلتني أتجاوز الطريق مطأطئ الرأس، وفي نهاية المطاف وجدت نفسي مضطراً لمغادرة الحي حاملاً معي عاري الأبدى.

في إحدى المرات جعلني أناي الأعلى أضحوكةً في مركز البريد عندما أجبرني على إرسال حوالة بليرة واحدة إلى القاهرة لبائع مصري أخطأ معي في الحساب بهذا المبلغ، لقد كانت هذه بعض الجرائم الصغيرة التي ارتكبها أناي الأعلى بحقي ولكنها ليست أبشع الجرائم فبعضها لا أجرؤ حتى على البوح

به ، وبعضها يسبب لي الحزن والألم لمجرد تذكره، ولهذا فعندما كنت أخلد للنوم كنت أتركه يتلوى ألماً بين فكّي أناي الأسفل الذي كنت أفتح له القفص على مصراعيه تاركاً إياه يعبث بمخيلتي غير ممتنع عما يطلو له من المحرمات، فكان يقود الجارات و زميلات العمل ونساء لم أر وجوههن في حياتي الواحدة تلو الأخرى، يشدهن من شعرهن و يرمي بهن تحت قدمي فأفعل معهن ما لا يخطر على بال، حتى أنني كنت أخجل من النظر في وجوه بعضهن في صباح اليوم التالي بسبب الفذارات التي كنت أرتكبها معهن ليلاً .

في إحدى المرات جعل مني زعيماً لإحدى عصابات المافيا في إيطاليا أو أمريكا، وجعلني أعيش فساداً بنزواتي و مسدسي الذي لا تتضبب طلقاته، و في مرة أخرى جعلني طاغية يركع الجميع عند قدميه، رجل الشرطة الذي شتمني مرة لسبب لا أدري ما هو حتى الآن، ذبحته آلاف المرات وأبحت عرضه بأبشع الأشكال، كل أولئك الذين منعني أناي الأعلى من التصدي لهم دفاعاً عن كرامتي بحجة عدم زج اسمي في محاضر التحقيق و العراكات الشوارعية ، كان أناي الأسفل يفتك بهم فتك الذئب بالنعاج ولو يعرفون ما يجري معهم على يدي أناي الأسفل فريما وضعوني في برميل من البارود وفجروه دون أن تختلج شعرة واحدة في أبدانهم .

ورغم أنني لم أكن سافلاً إلى تلك الدرجة التي يجعلني عليها أناي الأسفل إلا أنني كنت أغض النظر عن ذلك نكاية بأناي الأعلى الذي كان يلهب روعي بسوطه في صباح اليوم التالي. كثيراً ما فكرت بالانتحار للتخلص منهما معاً، وأذكر أنني لعام كامل كنت أخشى الاقتراب من النافذة لأنني كنت عاجزاً عن مقاومة فكرة إلقاء نفسي من غرفتي في الطابق الثامن، وقد سيطرت هذه الفكرة عليّ بسبب تنازعهما على أشلاء عقلي.

أما الآن وفي هذه اللحظة بالتحديد فأنا لا أبالي بهما أبداً، أهدق في الفتاة التي دخلت إلى عربة المترو بشجاعة نادرة مشبعاً عيني بذلك الجمال في تحدٍّ مباشر لأناي الأعلى، وفي نفس الوقت أغلق

أففاص أناي الأصفل بأقفال حديبية متينة مانعاً إياه من الخروج وجر الفتاة إلى قذاراته.

ابتمت لي الفتاة ابتسامة متوسلة ترجوني الكف عن النظر إليها ففعلت.

تقدمت من المقعد تريد الجلوس فتخلى لها الكثير من الرجال عن أماكنهم إلا أنها اعتذرت بنظرات شاكرة وجلست إلى جانبي مختارة المكان الفارغ قربي، وربما فعلت ذلك لكي لا تقع فريسة العرفان لأحد ولكن ورغم أنني لم أكن ضمن قائمة الأسباب التي دعته للجلوس إلى جانبي، إلا أنني شعرت بالتفوق على باقي رجال العربة لأنني نلت هذا الشرف.

لامس جانبها الأيسر جانبي الأيمن من الكتف حتى بطة الساق فشعرت بدفء لم أشعر به قط وتمنيت لو أضع يدي على كتفها لأشدها ناحيتي أكثر فنزيد التصاقاً، ولكنها على ما يبدو لم تكن تبادلني الشعور نفسه، فقد كنت أحس بعضلاتها المتشنجة التي تحاول ترك شعرة فاصلة بيننا ولم أكن أقاوم ذلك لكي لأسبب لها النفور فتغادر إلى مقعدٍ آخر، غير أن الازدحام لم يكن يسمح لتلك الشعرة الفاصلة بالاستمرار طويلاً ففي كل مرة تعود للتصاق بي أكثر إلى أن استرخت نهائياً كفريسة استسلمت لقدرها المحتوم، مما جعلني أرمقها بنظرة جانبية اكتشفت بعدها أن الفتاة قد استسلمت للنوم، مما دفعني للتمعن أكثر في تفاصيل وجهها الذي بدا عن قرب مرهقاً، وكان يدل على ذلك أيضاً تنفسها الثقيل والشحوب الطفيف على جفنيها.

هممت بإعادة وجهي إلى وضعه الطبيعي ولكن خصلةً من شعرها علقته في ذقني غير الحليقة فحافظت على وجهتي الجانبية لكي لا تغلت الخصلة، لم أكن أرغب أن تنفصل أي نقطة اتصال بيننا فتابعت تأمل تفاصيل وجهها رغم الألم الذي أخذت تبثه مناقيري العظمية في فقرات الرقبة، ولم أبال بصراخ أناي الأعلى الذي كان يكرّ على أسنانه مذكراً إياي بأني أجنبي و بأن تصرفي غير المتزن هذا سيجلب العار لأبناء قومي، فوضحت له أنني لا أفعل ما يعيب وأن تصرفي متزن تماماً وأكدت له أنني أنظر إليها كما أنظر إلى أي تحفة فنية رائعة ودعوته للتمعن بها لكي يتأكد بنفسه فأجابني بحزم



- :
- أنا لست مثلك، وليس للغرائز الحيوانية مكان في داخلي.
  - ولا أعرف من أين حصلت على تلك الشجاعة التي جعلتني أجادله :
  - التمتع بالجمال صفة إنسانية بحتة وهي تميز البشر عن الحيوانات، فالأدمي تهمة مواصفات محددة في المرأة التي يختارها، أما الحمار فلا يفعل ذلك وكل ما يهمله من أنثاه أن تملك جهازاً يسمح بالتناسل لكي تكون سعيدة الحظ و تشاركه حياته.
  - ثم سألته محاصراً إياه :
  - لماذا لا تهتم الحمار مواصفات أنثاه باعتقادك ؟
  - فلم يجبني، مما شجعتني على متابعة اجتياحي له فأجبت بنفسي على السؤال الذي طرحته:
  - لأن الحمير كغيرها من الحيوانات تفعل ذلك بدون أية دوافع غير طبيعية، تسيرها غرائز حيوانية بحتة، أما نحن البشر فنملك العقل والأحاسيس، قلبنا يخفق فرحاً قبل أن تتوقد في بدننا أية شعلة أخرى. . عندما يقابل أحدنا امرأة يشعر بالانشراح قبل أي تفاعلات غريزية وعندما يفارقها يشعر بالحزن. .
  - اصفر وجهه واكفهر فتأكدت أنه شعر بالهزيمة ودفعني شعوري بالسيطرة عليه للاستفاضة الفلسفية وتابعت حديثي معه كمعلم جليل يوضح الأمور لأحد تلاميذه الأغبياء :
  - ولماذا تعتقد أنه يشعر بالحزن ؟ لأنه سيُحْرَمُ متعةً دنيوية؟ لا. . بالتأكيد لا. . فتلك المتعة يمكنه الحصول عليها مع أي عاهرة مقابل مبلغ زهيد من المال وقد تكون تلك العاهرة أجمل من امرأته بعدة مرات. . إنه يحزن لأن المرأة التي فارقها هي جزء منه. .
  - في كافة الأحوال فإن هدفك الأخير أخذها للفراش.
  - قاطعتني أناي الأعلى غير واثق من نفسه، وكأنه أمسك بي من اليد التي تؤلمني، ولكن ثقتي بنفسي في

تلك اللحظة كانت أكبر من تصوراته، فأجبتة على الفور ودون أي ارتباك :  
- الفراش هو المكان الطبيعي للرجل والمرأة، لو لم يكن الفراش كذلك لوقع الرجل في حب  
رجل أو المرأة في حب امرأة ولكن الفراش هو منظم العلاقات في هذا الكون . .  
صرخ مقاطعاً إياي كمن يلفظ أنفاسه :

- هذه سياسة «الغاية تبرر الوسيلة»، وأنت تعرف ما يعنيه ذلك . .  
ثم صمت منتظراً ردي، أما أنا فقد اكتشفت عمق الهوة السحيقة التي تفصل بين مستواي ومستواه ورأيت  
ضحاكته الفكرية والثقافية بوضوح تام، مما جعلني أشوّح له بقفا يدي بازدياء وأشيح بوجهي عنه  
متجاهلاً وجوده ومترفعاً عن هدر الوقت في مثل هذه النقاشات السخيفة، وأخذت أتأمل عنق الفتاة الذي  
انكشف كاملاً بعد أن ألقى برأسها إلى الخلف، ثم أخذت أنحدر بنظري نحو الأسفل حتى وصلت إلى  
تخوم نهديها فاصطدمت عيناى بزّر قميصها الذي كان متشنجاً بشكل يدل على أن خيوطه تتأهب  
للانقطاع، وكادت نظراتي تجعل جميع أزرار القميص تتطاير عن صدرها النافر لو أن صفة جعلت  
الشرر يتطاير من عيني لم تقطع علي تركيزي، رفعت رأسي فرأيت أناي الأعلى يكرّ على أسنانه وقد  
تشنجت ملامح وجهه ثم يطلق من بين شفثيه شتيمة تعودت أذناى على سماعها:  
حيوان .

- تماكنت نفسي وقلت له بهدوء أعصاب ربما لكي لا أثير انتباه باقي ركاب العربة :  
- أنت الحيوان الوحيد في هذا المكان، ولو كان في يدي الآن مسدس لأفرغت كل طلقاته في  
صدرك.

ثم بصقت في وجهه.  
مسح البصقة بالهدوء الذي يلي الصدمة، ونظر إليّ غير مصدق ما يحدث أمام عينيهِ وقال :  
- أنا بريء منك .

ثم وجه لي صفة مؤلمة جعلت الدمع ينفر من عيني فلم أتحمل الأمر ووضعت رجلي في صدره ودفعته بكل قوتي بعيداً وصرخت :  
- وأنا منك بريء.

في هذه اللحظة توقف المترو على المحطة وانفتحت أبواب العربات فشاهدته يرفع نفسه عن الأرض وينفض الغبار عن ثيابه الأنيقة ثم يخرج مصطدماً بالعجوز التي دخلت إلى العربة دون أن تنتبه له أبداً.

أحسست بصدري يمتلأ بالهواء وبصخرة انزاحت عن كتفي فنفتت من رثتي هواءً خزيناً في فضاء العربة ورحت في استرخاء وشرود لم أفق منهما إلا على ثقل فوق كتفي الأيمن. التفتُ ناحية اليمين فإذا برأس الفتاة فوق كتفي، لقد مالت نحوي فيما أظن عندما تجاوز المترو منعطفاً حاداً قبل قليل فاتخذت من كتفي وسادة لها.

شعرت بخيوط من الفرع تحبك نسيج روعي من الجانب الأيمن، ووددت لو أتمكن من تمسيد شعرها لكي تشعر بالاطمئنان وسرحت في مراعي خيالي الخصبة.

أطلت الفتاة من دغل كثيف يحيط بمرج أخضر فسيح كنت أف في منتصفه ثم أخذت تركض نحوي متقافزة كغزال وثوبها الأبيض الذي تشع من داخله هالة من النور يتراقص منسجماً مع حركاتها كاشفاً عن قدميها الحافيتين وساقها البضتين وكانت مناديل شفافة مختلفة الألوان تتساقط من ثوبها متناثرة في جميع الاتجاهات. وربما يكون هذا المنظر قد جاء إلى مخيلتي من فيلم سينمائي ما، كنت قد شاهدته مما أبطل المفعول الرومانسي لهذا اللقاء، ولكنني مع ذلك تابعت الخطوات المعهودة في السيناريوهات السينمائية فأغمضت عيني وفتحت ذراعي لاستقبالها، وكنت على وشك ضمها إلى صدري عندما سمعت سعالاً حاداً قطع شريط مخيلتي.

رفعت رأسي فإذا بالعجوز التي دخلت أثناء توقف المترو في المحطة السابقة تغرق في نوبة من

السعال موجهةً إليّ نظرات حاقدة لأنني لم أُخلِّ لها مكاني لتجلس، وهذا ما كنت سأفعله لكي أُرضي أناي الأعلى فيما لو كنت لا أزال تحت احتلاله، ولكنني الآن غير مستعد أبداً للقيام بهذه المغامرة والتضحية بكل هذا الفرح الذي يجتاحني، فتركت العجوز بحالها غير آبه بما قد تظنه، وعدت للتعرف إلى الفتاة عن قرب أكثر.

حركت كتفي في حذر لكي يستقر رأسها فوقه بشكل مريح فالتصق سطح رأسها بحنكي الأيمن ورقبتي وسقطت يدها على فخذي مما جعلني أغفل عن أناي الأسفل الذي فتح أقفاصه لحيواناته الحبيسة لكي تقود غرائزي، ورغم أنني لم أردع تلك الغرائز، فهي لم تتمكن من أن تعيث على هواها بسبب بقايا الجدران التي بناها أناي الأعلى والتي لم أتمكن من تهديمها كاملةً قبل قليل، مما جعل تلك الحيوانات تشعر بالإعياء وتفضل العودة إلى أقفاصها.

لكن الرجل الذي كان يجلس قبالي لم يكن يسيطر على حيواناته أبداً فقد كانت أقفاصه مفتوحة الأبواب وحيواناته تهيم في المرعى بحرية تامة تلتهم كل ما يصادفها من الخضرة، كان يمارس الجنس بعينه بشكل مكشوف مزدرداً لعبه بين الحين والآخر مما دفعني للقيام ببعض الإجراءات الدفاعية السريعة فنظرت إلى البؤرة التي يحدق فيها واكتشفت أن ثوب الفتاة كان قد انحسر عن إحدى ركبتيها بفعل التزاحم، تصورت كم هو منظر مثير للغرائز من الجانب المقابل فمددت يدي وأعدت الثوب إلى وضعه الطبيعي مغلقاً علالرجل باب خياله القدر، وفي الوقت نفسه داهمته بنظرة ثاقبة تدل على أن أوراقه، مكشوفة، مما جعله يشعر بالخجل ويميل رقبتة يميناً ويساراً متصنعاً أنه يلين رقبتة المتشنجة. وصل المترو إلى المحطة المفترض أن أترجل عندها، فكدت أوقظ الفتاة وأترجل ولكن شيئاً ما منعي من ذلك.

ليذهب سليم ومكدوسته إلى الجحيم، فهل توازي باذنجانةً محشيةً بالثوم والجوز هذا الدفء الذي ينتشر في كافة كريات دمي، لقد أريك سليم حياتي منذ أن وصله مرطبان المكدوس هذا، فمنذ أكثر من

أربعين يوماً أرسلت له والدته التي تقيم في حمص هذا المرطبان مع شخص قادم من الوطن-أنا شخصياً كنت سأعاتب أمي فيما لو فعلت ذلك، لا أحب مثل هذه الأمور فمن غيراللائق أن أكلف أحداً عناء هذه الحمولة الخطرة التي قد ينساح منها الزيت فيلوث جميع محتويات الحقيبة، خاصةً أن الأمر لا يستحق ذلك، «فليس بالمكدوس وحده يحيا الإنسان»- أما سليم فقد رفع المرطبان بين راحتيه وأخذ يدور حوله متأملاً إياه تعتريه حالة من انعدام الوزن كما لو أنه يتأمل مولوده البكر، ثم ثارت أشجانه وانساح شريط ذكرياته منذ أن كان طفلاً وحتى الساعة التي ودعه فيها أهله وأصدقائه في مطار دمشق، ثم انهمرت دموعه وأخذت تسيل على خديه ثم تغور في ذقنه الكثيفة، وأخذت تصدر عنه أنات مكتومة.

بعد هذا الاستقبال المؤثر لمرطبان المكدوس قام سليم بوضعه على الطاولة ثم مسح دموعه بالمنشفة وتمخط وقرر تعميم الفرح على أبناء الجالية فأحصى محتويات المرطبان واكتشف أنه يحتوي على عشر مكدوسات مما يجعل المهمة صعبةً للغاية، ولذلك فقد دوّن لائحة بأسماء جميع أفراد الجالية والأسماء البارزة من الجاليات العربية الأخرى وبعض الأسماء التي تشكل مراكز ثقل في البلد لتعريفها بمطبخنا الذي ينم تعقيده عن رفعة مستواه وبالتالي عن رفعة المستوى الحضاري للبلد، كان سليم يقيد الأسماء وكأن لديه عشرة أطنان من المكدوس، مما جعل اللائحة التي تشكلت لديه تحتوي على أكثر من ثلاثمئة اسم، وهذا ما جعله يبدأ الغريلة المضنية للحصول على تسعة أسماء، فقرر اختيار أقرب صديقين من أبناء الجالية وأربعة أسماء من الوجوه البارزة في الجاليات العربية وثلاثة مسؤولين من البلد المضيف، وبعد أن عانى الأمرين توصل إلى غايته المنشودة، إلا أنه عاد وألغى من اللائحة أسماء المسؤولين الثلاثة مبدلاً إياها بأسماء ثلاثة أشخاص من أبناء الجالية، ثم شطب اسمين من الوجوه البارزة في الجاليات العربية واستمر في إجراء التعديلات على القائمة حتى توصل إلى الصيغة النهائية في الرابعة صباحاً فخلد للنوم، ولكنه استيقظ من نومه عدة مرات وأجرى

الكثير من التعديلات قبل أن تشرق الشمس، وفي الصباح كانت جميع الأسماء التي تضمها اللائحة من أبناء الجالية، في الأعلى عشرة أسماء أساسية وفي الأسفل عشرة أسماء احتياطية فإذا تبين أن أحد الأساسيين مسافر إلى مكان ما أو غير موجود في البلد يحل محله أحد البدلاء ، وكان اسمي في رأس القائمة الأساسية فالصداقة بيننا تمتد جذورها إلى الوطن حيث جمعتنا خيمة واحدة أثناء تأدية الخدمة العسكرية، و لذلك فقد اتصل بي وأخبرني بالمفاجأة السارة وطلب مني إحاطة الأمر بالسرية التامة مبرراً ذلك بعدم إحداث بلبلة في صفوف الجالية ثم حدد لي موعداً أحضر فيه إليه للتمتع بالطعم اللذيذ للمكدوسة التي خصني بها، وهكذا فعل مع جميع الأسماء الأخرى.

كان يجب أن أحضر في اليوم الثالث بعد الاتصال حسب الموعد الذي حدده لي سليم، ولكن بعض المشاغل منعتني فاتصلت معذراً وتم إرجاء الاحتفال إلى يوم آخر، وفي ذلك اليوم أيضاً لم أتمكن من الحضور فاتصل سليم مستفسراً وحددنا موعداً ثالثاً لم يكن أوفر حظاً من سابقه، مما جعل سليماً يقدر وضعي ويفسح لي المجال بالقدوم بشكل حر متى تسنح لي الفرصة لذلك، شريطة الاتصال به مسبقاً، ثم سارت الأيام ونسيت المكدوسة نهائياً، مما دفع سليماً لكي يقوم بالاتصال بنفسه والاستفسار عن نواياي بخصوص المكدوسة ، فوعده بأنني سأحضر قريباً، ومرة أخرى منعتني ظروف من الذهاب إلى سليم، فأخذ يرفع عبر الهاتف تقارير مفصلة عن حالة المكدوسة ، فأخبرني أولاً أن الجميع حصلوا على مكدوساتهم وأنها الوحيدة الباقية، وقال ذلك بلهجة لا تخلو من التعنيف، ثم أخبرني بأن الباذنجانة تنتشع بالزيت وأنها مع مرور الأيام تفقد نكهتها، وبعد ذلك أنبأني بأن طبقة من العفن أخذت تتشكل على سطحها العلوي لأن الزيت يجف، وأنه يضطر يومياً لإضافة زيت ذي نوعية سيئة فوق المكدوسة لكي يمنع ذلك وأعرب عن خشيتي من عدم وجود ضمانات للحفاظ على المكدوسة في المستقبل، وفي نهاية الأمر هددي بشكلٍ صريح بأنه سيمنح هذا الشرف لشخص آخر إذا لم أحضر، ولذلك خضعت

للأمر وتوجهت نحوه مباشرةً لكي لا يشعر بالندم على المكانة التي خصني بها، ولكن هذه المكدوسة على ما يبدو ليست من نصيبي ولا بد أن شخصاً آخر سيتناولها.

العجوز وجدت لنفسها مكاناً وجلست، ولكنها لا تزال تحدّق فيّ بازدياء وحقد، مما جعلني أزيح بصري عنها مرسلأ إياها إلى الجحيم، ثم نظرت إلى الرجل الذي يجلس قبالي فوجدته قد تسلل من جديد إلى تحت ثوب الفتاة و« تقاحة آدم» تخنلج بوضوح تام تحت ذقنه، وتخيل إليّ أن طقطقة ريقه كانت تسمع بوضوح أيضاً فتصدت له على الفور ودارت بيننا بالأعين معركة حامية الوطيس، هزمته في نهايتها و أجبرته على تشنيت نظراته إلى زوايا مختلفة.

حاولت العودة إلى المرح الأخضر المطوق بالدغل الكثيف، ولكن الصورة كانت قد غدت باهتةً هناك، لم تكن الرومانسية السينمائية الساذجة تتلاءم مع درجة التواصل التي بلغناها، فوجدت نفسي في بهو منزل فخم أجلس على كنبه مخملية أطالع جريدة الصباح، وكان هذا منزلي الذي بني خصيصاً لهذه المناسبة، وبعد قليل خرجت الفتاة من ناحية المطبخ، وكانت في هذه المرة زوجتي و كانت حاملاً في شهرها الأخير فهممت بتوبيخها لأنها ترهق نفسها، كما يفعل كل رجل يحرص على صحة جنينه و زوجته التي يحبها، ولكنني اكتشفت أنني أجهل اسمها فضحكت من نفسي، ( أيعقل أن يجهل رجل اسم زوجته الحامل؟ و في شهرها الأخير؟) ولذلك أخذت أبحث لها عن اسم قبل أي شيء، وعندما بدأت التنقيب تبادل لي اسم ميساء على الفور.

كانت ميساء صديقة الطفولة المبكرة، لقد كنا معاً بشكل دائم تقريباً، فأهلنا أصدقاء ولا يفصل منزلنا عن منزلهم سوى جدارٍ منخفضٍ رصفت أحجاره فوق بعضها كيفما اتفق، وقد كان حدأ أكثر منه جداراً، ولا أدري أكنتُ في الثالثة أم في الرابعة من عمري عندما تشنجت العلاقة بيننا، حيث ذهبت في مهمة لرمي القمامة في الحاوية التي تبعد عن منزلنا ما يقارب الخمسين متراً، فقامت ميساء كما في كافة المهمات المشابهة بالإمساك بيدي وقيادتي إلى هناك كونها تكبرني بسنة، رغم أنني كنت أكبر منها

حجماً في ذلك الوقت، ألقينا القمامة في الحاوية ثم وقفنا نراقب دجاجاتٍ تجمعت حول الحاوية تتبش القمامة المتجمعة وكان منظرًا مثيراً بالنسبة لنا، ثم ما لبثتُ أن جلستُ على صخرة هناك بعد أن تعبت من الوقوف، وعندما أرادت ميساء الجلوس لم تجد مكاناً لها فجلست على ركبتيّ جلسة غير مريحة فقامت أنا بدافع الحفاظ عليها من السقوط بتطويقها من تحت إبطيها وضمها، ولم يخطر في بالي أبداً أنها أنثى وأنا ذكراً، لم أكن أعرف الفرق في ذلك الوقت، ولكن والدها الذي كان قادماً من جهة ما لم يكن ليأخذ ذلك في عين الاعتبار حيث قام بانتراعها من بين يدي بشكل مفاجئ وصفعها صارخاً في وجهها ثم صفعني ناعثاً إياي بوصف لم أفهم معناه في ذلك الوقت ولذلك لم أحفظه في ذاكرتي، كنت أتوقع أن والدي لن يتوانى عن تحطيم أنفه عندما أخبره مساءً بما حصل معي، ولكن الآية جاءت معكوسة، فقد كان والد ميساء حملاً وديعاً بالنسبة لوالدي.

ورغم أن أهلنا ظلوا أصدقاء و ظلوا يترددون على بعضهم البعض، إلا أنني أصبحت ضيفاً غير مرغوبٍ فيه في منزلهم، ولم يعد يسمح لها بمرافقة أهلها إلى منزلنا وإن حدث والتقينا فإن العيون كانت مسلطة علينا برقابة لا تنقطع، ولهذا السبب فقد خرجت من حياة ميساء وهي كذلك خرجت من حياتي. ولكننا عدنا واجتمعنا من جديد في المدرسة الابتدائية وأخذنا بشكل غير مخطط نترافق في الطريق إلى المدرسة مع رهط من التلاميذ وأخذت تظهر ملامح التعصب الجنسي على الفتيات والفتيان فكنا نسير منفصلين عنهن، وتحولت ميساء في هذه المشاوير من صديقة إلى محط سخرية، حيث أغافلها وأصدمها فيسبب سقوطها على الأرض عندي باعثاً للضحك، وكثيراً ما كنت أكنم لها خلف الحيطان فأفاجئها صارخاً وأبعث في نفسها الرعب، ولكنني لم أكن أبداً أفكر بها كفتاة، وحتى عندما تطاولت وانتفخ نهداها وأصبح لها شكل امرأة حقيقية فإنني لم أكن أعيا بها، ولولا عادل الذي كان في صفها لما تركت ميساء في حياتي أي أثر، ولكن عادلاً الذي كان لا يحترمني سابقاً ولا يفتأ يسطو على أملاكي الشخصية منتزِعاً « سندويشة » الفلافل من بين أسناني تارة وخاطفاً النقود من بين أصابعي عند بسطة



حسن كلش تارة أخرى، تحول في لمح البصر إلى صديق حميم وأخذ يجزل لي العطاءات، إلى أن أخذنا ندرس في خيمة كنا قد نصبناها على سطح بيتنا وقد سررت لهذه الصداقة، فقد كان عادل من الرموز التي يخشاها الجميع وكان شجاعاً لدرجة أنه كان لا يهرب عندما كان أحد المدرسين يعبر الشارع، بل على العكس كان يركض باتجاهه ويلقي عليه التحية، ولكن الذي تبين هو أن عادلاً اتخذ مني واجهة لتحقيق أمر آخر، فقد لاحظت أن عادلاً يبقى لفترات طويلة عند حافة السطح من جهة منزل ميساء وعندما فاتحته بالأمر أعلمني بأنني الوحيد الذي سيبوح له بسرّه لأنني صديقه الوحيد، ثم اعترف بأنه مغرم بميساء، وكان الاثنان في الصف التاسع، وعندما سألته لماذا ميزها عن باقي الفتيات بلهجة ملؤها السخرية من ميساء ، انزعج وأفهمني بأنني لست محقاً وأخذ يصف لي تفاصيل ميساء، ولم يكن قد انتهى من الوصف حتى كنت قد وقعت في حبها أنا أيضاً، وكان عادل قد أسرّ لي بأنه قد رأى ميساء عارية عدة مرات من موقعه على سطح بيتنا فطلبت منه أن أراقب معه فرحب بي وأخذنا لساعات طويلة نراقب، ولم أكن أرى شيئاً، إلا أن عادلاً كان يصّر بأن ميساء قد خطرت خلف النافذة عارية وكان يشير إلى شق فاصل بين ستارتيها فلم أكن أرى الشق ولا أعرف النافذة المقصودة ، إلا أنني كنت أوافقه في كل الأحيان انطلاقاً من ثقتي الكبيرة به، ولكنني أعتقد أن الشبح الذي كان يراه عادل خلف الستارة لم تكن ميساء وإنما كان والدها ذا الشاربين الكثرين والشروال الذي يلامس بحره الأرض ولم يكن عارياً أبداً.

فيما بعد اختلق عادل لنفسه مبرراتٍ ما وأخذ يدخل إلى منزلهم وما لبث أن تخلى عن صداقتي، لا بل كثيراً ما رماني بحجر أو صاح بي لكي أبتعد عن حافة سطحنا المشرفة على نوافذهم، ولكنني كنت قد فقدت خوفاً منه في ذلك الوقت فكنت إما أرد له الصاع صاعين وإما أشتمه بأقسى من العبارات التي يمطرنى بها، فبعد أن وقعتُ في حب ميساء لم يعد شيء في الدنيا يبعث في نفسي الخوف بل على العكس كنت أتمنى الدفاع عنها وخاصة من هذا الوغد عادل وهذا ما تم لي، فقد كان يغيظني

خصيصاً ويدخل إلى منزل ميساء بطريقة استفزازية حيث يتقصد إغلاق البوابة خلفه عندما يراني واقفاً أمام بوابة منزلنا وكأنما ليفتح باب خيالي الخصب إلى الشعاب القذرة، فانتظرت في إحدى المرات وفجأته بصفعة تهيأ لي أنها دوت كما لو أن صنجةً نحاسيةً اصطفت بأختها، وربما كان ذلك بفعل الشعور بالفرح العارم للانتصار على بطل الحارة، ولكن هذا الشعور سرعان ما تبدد عندما نهض عادل عن التراب وهجم نحوي كثور هائج ثم انحنى ودفعتي بكتفه مما جعلني أنقذتُ نحو الخلف ملتصقاً بالجدار، ثم تلا ذلك بركة ماهرة على كاحلي جعلت قدمي يرتفعان في الهواء ورأسي يرتطم بالأرض، ثم جثم على صدري وثبت كتفي بطريقة متقنة وأغلق أنفي وعيني بيده اليسرى وأخذ يملأ فمي بالتراب، شعرت يومها أن نهايتي أوشكت، فقد انقطع عني الهواء تماماً وأخذت أختنق وهذا ربما أعطاني قوة إضافية تساعدني في الصراع من أجل البقاء فبحثت بيدي التي تمكنت من تحريرها عن شيء ما ربما يساعدي في الخلاص فعثرت على عصا ما لبثت أن استقرت على رأسه وفي هذا الوقت كان قد تدخل أحدهم لفك الاشتباك فصفعنا بالتتالي وطرد كلاً منا إلى بيته.

بعد ذلك لم أعد أتعمد مواجهة عادل إدراكاً للعواقب الوخيمة لمثل هذه المواجهة، وهو لم يعد يتقصد استفزازي إدراكاً منه أنني لست لقمةً سائغة، ثم علمت فيما بعد أن عادلاً يدخل إلى منزل ميساء تحت ذريعة واحدة فقط هي استعارة الكتب وردها وأن ميساء لا تبادله أي شعور ولا تعلم أصلاً بحبه لها فبردت نفسي وتحول عادل في عيني إلى ولد فارغ، القتال معه يكسبه شيئاً من الاحترام فلم أعد أكثر له رغم أنني لم أتخل عن حسدي الشديد له بسبب تمكنه من زيارتها وعدم تمكني من ذلك، وتحديداً لهذا السبب كنت ابتهل واتوسل السماء راجياً رسوب ميساء في امتحانات الشهادة الإعدادية، وكانت فرحتي لا توصف عندما علمت أن ميساء رسبت، وفرحت بنفس القدر لنجاح عادل الذي كان بمثابة خلاصي من منافسته، وفي الوقت الذي كانت فيه كانت دموع ميساء تنهمر بغزارة بسبب النتيجة الخائبة، كانت أسراب من الحساسين تغرد في صدري ودخلت إلى غرفة جانبية رقصت فيها مرحاً. فقد

أصبحت ميساء زميلتي وأصبحت لدي الأعذار لزيارتها.

في البداية كانت معادلات الكيمياء مبرراً قوياً للقاء، فقد كانت ميساء بناءً على طلبي تشرح لي كافة المعادلات ورغم أنني لم أكن أتابع حديثها عن الحموض أو المعادن، فإنني كنت أهرز رأسي بالإيجاب كلما سألتني إن كنت قد فهمت أم لا، ولكنني مع تكرار العملية شعرت أنني بعثت في نفسها ظناً بأنني غبي، وأن ذلك ربما يؤثر على مكانتي عندها ولذلك انقلبت إلى الرياضيات وباقي المواد بالتتالي.

كانت كتب ميساء تخنفي الواحد تلو الآخر وكنت أفعل ذلك لكي تضطر ميساء لاستعارة كتبي التي كنت أملؤها بعبارات الحب المشهورة التي كنت أقتطفها من الأغاني والأفلام المشهورة وخاصةً أغاني أم كلثوم وعبد الحليم، وأذكر أنني كتبت قصيدة رسالة من تحت الماء كاملة وكذلك قارئه الفنجان، أما عبارة (القلب يعشق كل جميل) فقد كانت على الصفحة الأولى من كل كتبي، وكنت في كل مرة أسترد فيها كتاباً من عند ميساء أقلبه و أقلبه على تعليقه كتبتة أو عبارة خطتها فكنت أصاب بخيبة الأمل إذ أن ميساء كانت تقرأ الكتب دون أن تلاحظ عباراتي مطلقاً وفيما بعد تحولت العبارات إلى رسوم وخاصة ذلك القلب الذي يخترقه سهم ثم تجرأت وكتبت الحرف الأول من اسمها والحرف الأول من اسمي ضمن قلب واحد ولكن دون جدوى، لقد كانت ميساء دُشمة صعبة الاختراق.

ضاق صدري بذلك الحب الكبير ولم أعد أتذوق طعم النوم فقد كانت ميساء تحنل كل مساحة العقل والحلم، وضقت بنفسني ذرعاً فقررت مصارحتها بالأمر وليكن ما يكون، وقد تطلب الأمر وقتاً ليس بالقليل قبل أن أنفذ قراري، ففي كل مرة كنت أستوقفها لأعلن لها ذلك كانت تخونني الكلمات وتتجمد الحروف في حنجرتي فأجد موضوعاً آخر للحديث.

وأخيراً وبعد معاناة زوام استوقفته وكانت متوجهة إلى التتور حيث كانت والدتها تعد الخبز صباح يوم الجمعة وقررت مصارحتها بالأمر وقطعت على نفسي كل طرق الانسحاب فإن فشلت هذه المرة فإنني سأحتقر نفسي إلى الأبد، هذا ما صرحت به قبل أن أستوقفها.

لم أكن أتوقع أن تقفز من فوق الحائط وتضميني في عناق طويل أو أن تلقي برأسها فوق صدري وتغمض عينيها و تحلم، توقعت فقط أن تبتسم ابتسامة خجلى وتحيد عني بنظرها حياء ثم تنصرف بخط مسرعة دون أن تجيب بشيء، وكنت أعتبر ذلك موافقة مبدئية من قبلها تكفي لكي أتشجع وأدس لها رسالة في أحد الكتب، ولكنني لم أكن أتوقع أبداً أن تأخذ حجراً من الجدار الفاصل بين منزلينا وتهوي به على رأسي عندما قلت لها: (أحبك).

ضمخ الدم شعر رأسي وسال غزيراً على وجهي وانسحبت دون أن أعلق بكلمة واحدة، أما هي فرمت في أثري وصف الحقير وتابعت سيرها إلى التنور، ومن يومها انقطعت علاقتي نهائياً بميساء التي تزوجت مرتين فقتل زوجها الأول برصاصة طائشة لا يعرف أحد مصدرها إلى الآن، والثاني في حادث سير ولكنها أنجبت منهما سبعة أطفال وفي آخر مرة شاهدها كانت مثل امرأة عجوز، سميئة مترهلة وجهها متغضن والشيب يكسو رأسها، ولم يبق من ميساء التي أحببتها سوى الصورة العالقة في خيالي والتلم الأعوج الذي شكلته الندبة المتبقية من ذلك الحجر في أعلى جبھتي والذي كشف عنه التصلّع الذي جرد مقدمة رأسي.

بحثت للفتاة التي تنام على كتفي عن اسم آخر فتبادر إلى ذهني اسم سلوى، وسلوى هي الأخرى فتاة وقعت في حبها فترة عام كامل أثناء مرحلة الدراسة الثانوية، ولكنها لم تكن مثل ميساء وحببي لها لم يكن من طرف واحد، فقد كانت متيمّة بي أضعاف ما كنت متيمّاً بها، كما أن حبنا لم يكن عذرياً كما كانت عليه الحال مع ميساء، فقد كنا ناضجين و كانت مشاعر الحب التي تجمعنا مقسومة بين قلبينا وغرائزنا، ولهذا فإن حبي الجديد لم يخلُ من بعض المداعبات والقبل، ولم أجرب وقتها التناول أكثر من ذلك لأن اللقاءات كانت دائماً قصيرة وفي أماكن شبه مكشوفة فقد كانت سلوى تحت رقابة دائمة.

بحثت طويلاً عن مكان لا يرانا فيه أحد فاهتديت إلى الفسحة الصخرية الواقعة خلف مسلخ البلدية فقد كانت الصخور تشكل جدراناً مرتفعة كفيلة بإخفائنا عن الأعين وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من

المكان درعاً واقياً من أعين الرقباء حيث كان المارة يتحاشون عبور المكان ولم يكن هناك مبرر لأحد للمرور قربه.

أمضيت وقتاً طويلاً في إفناع سلوى قبل أن توافق على اقتراحي وتوجهنا إلى هناك أتقافز أنا على الصخور أمامها وتتبعني هي متقافزة بحذر محدقة بالأرض خشية أن تتعثر وقد سدّت أنفها انقاءً للرائحة المنبعثة. كان الوقت عندها مساءً وكان ضوء خافت لم نحسب له حساباً ينبعث من إحدى نوافذ المسلخ وعندما وصلنا إلى المخبأ الذي حجبنا تماماً عن العالم المحيط، تنفسنا بارتياح وأخذت سلوى تتأمل المكان وقد أفلتت أصابعها عن أنفها، أما أنا فقد جلست على صخرة هناك وأمسكت بيد سلوى وتسارعت دقات قلبي الذي أخذ يخفق بسرعة كقلب شاة مقيدة ترى الجزار يشد السكين لذبحها، لا كقلب عاشق بريء سيتحول إلى رجل بعد قليل، وهذا ما حدث أيضاً مع سلوى التي تولد لديها شعور بالخوف وابتعدت عني ساحبة يدها من يدي وتركت بيننا مسافة أمان وكأني بها تخاف أن أنقض عليها وأغتصبها، وما لبثت أن طلبت مني أن نغادر المكان فاحتضنتها وشدتها إلى صدري بينما أخذت هي تحاول التملص فكنت أشدها أكثر وأطمئنتها بأنني لأنوي فعل شيء، والحقيقة أنني لم أكن أدري ماذا يمكنني أن أفعل فرغم معرفتي النظرية بالموضوع فإنني من الناحية العملية كنت جاهلاً تماماً ولذلك فقد اكتفيت بالقبل الحارة والمداعبات التي استسلمت بعدها سلوى وأصبحت جاهزة للخطوة اللاحقة، وأحسست وكأنها ملت القبل وتنتظرنني أن أقوم بفعل حقيقي، ولذلك فقد اضطرت للقيام ببعض الإجراءات التي كنت أفترض أنها مطلوبة خشية أن تظنني سلوى جاهلاً، وسرعان ما تفاعلت سلوى معي فانسلت راحتها إلى ظهري من تحت القميص وكاد يتحول هذا المكان الذي تنبعث منه رائحة الجيف، إلى قطعة من الجنة لو لم يبرز وجه رجل تجاوز الستين أشقر الشعر أصفر الشاربين يرتدي بدلة درك قديمة ويهم بك أزرار بنطاله، عندما فوجئ بنا أطلق صيحة لم أدرك أكانت صيحة رعب أم صيحة إخافة فأطلقنا سيقاننا للريح دون أن ننوي على شيء بينما هو يصرخ في أثرنا:

- زعران ..

و لم أتوقف إلا عند الطريق الإسفلتي فجلست القرفصاء لاهثاً أسترد أنفاسي، وعندما تمالكت نفسي قليلاً نظرت حولي فلم أر سلوى مما جعل الخوف يتسلل إلى قلبي، فالشمس قد غابت وحلّ ظلام خفيف، الأمر الذي دفعني للاعتقاد بأنها ربما تكون قد تاهت بين الصخور فهربت إلى البرية بدلاً من الطريق الإسفلتي، وربما يكون ذلك الشخص قد قبض عليها، مما دفعني للعودة بحثاً عنها فتسللت إلى المكان الذي كنا فيه بحذر شديد وعندما سمعت صوتاً تدحرج حجرٍ كمننت خلف صخرة ثم شاهدت الرجل يخرج من الفجوة التي كنا فيها مزرراً بنطاله مما دفعني للتفكير :

- الوغد.. اغتصبها وقتلها..

وعندما اختفى في المسلخ توجهت إلى الفجوة الصخرية فلم أجد سلوى هناك مما دفعني للتأكد بأنها تاهت في البرية واعتراني الخوف من مصير أسود قد تلاقيه هناك حيث تكثر الذئاب وربما الضباع التي لن تتعفف عن وجبة مثل سلوى، لم أكن أتصور حياتي دونها فقد كنت مولعاً بها بشكل لا يوصف ربما سأجن لو حصل لها مكروه، ولهذا فإنني لم أهدر الوقت في التفكير وتوجهت إلى البرية فوراً وكنت لا أزال أرى طريقي فذهبت إلى الناحية التي افترضت أنها توجهت إليها وكنت في طريقي أمسح المكان بعيني بحثاً عنها وأنده باسمها بصوت خفيض بين الحين والآخر عليها مختبئة هنا أو هناك ولكن ليس من مجيب.

لا أدري كم مر من الوقت وأنا أبحث، ولكنني أضعت دربي بسبب الظلام الدامس الذي خيم على الكون ثم أخذت أصرخ بصوت مرتفع منادياً سلوى، وكان الهدف من ذلك بعث الشجاعة في نفسي أكثر منه إيجاد سلوى، أخذت أنظر في مختلف الاتجاهات لكي أرى بصيص نور يرشدني إلى المدينة فلم أوفق وأدركت أنني ربما في منخفض، لمحت ضوء سيارة بعيدة تعبر فوق الطريق الإسفلتي فتوجهت ناحيته فوراً ولكنني سرعان ما أضعت الاتجاه مرة أخرى، وتحولت رحلتي من رحلة بحث عن سلوى إلى

رحلة بحث عن المدينة، ولكنني لم أوفق في العثور عليها فتحوّلت مساعيي للبحث عن مأوى آمنٍ يحتويني حتى يرسل الفجر أشعته الأولى، واصطدمت بحاجز تهيأ لي أنه جدار وعندما أخذت أدور حوله متلمساً إياه لامست يداي سطحاً معدنياً وقد تأكدت من ذلك عندما نقرت عليه فاعتقدت أنه بيت متطرف ودققت على بابه المعدني فلم يرد علي أحد، دفعته براحتي فانفتح مصدراً صريراً لا يبعث أبداً على الطمأنينة في مثل تلك الليلة، ولكنني دخلت وأقفلت الباب خلفي فوجدت نفسي في فناءٍ مكشوف، لم أتابع التقدم في العمق خوفاً من تهيؤات تصورت لي فاستندت بظهري على الجدار ثم جلست في حالة متحفزة تحسباً لكافة الاحتمالات، ولكنني من شدة الإرهاق غفوت دون أن أشعر، ولم أستيقظ إلا على صرير البوابة الحديدية التي كانت تنفتح.. انتفضت واقفاً فوجدت أمامي مجموعة من القبور أحيطت بسورٍ مرتفع له بوابة حديدية وكان رهطٌ من الناس يحملون نعشاً ويدخلون إلى المقبرة، فقامت بشد مصراع البوابة حتى دخل حملة النعش شاعراً بالإحراج من وجودي في المكان ولكن أحداً على ما يبدو لم يعرني انتباهاً فقد تجمع الكل حول حفرة أعدت سابقاً وتمت إجراءات الدفن ثم عاد الجميع إلى المدينة وعدت أنا معهم في الباص الذي كان يقل المشيعين.

توجهت من فوري إلى البيت وكلي ثقة بأن الشرطة تبحث عني بعد اختفاء سلوى ولذلك قمت باستطلاع حذر قبل أن أدخل إلى المنزل وعندما دخلت وجدت أن الحياة تسير بشكلٍ طبيعي، ألقىت التحية فرد الجميع بلهجة اعتيادية وكانوا قد تعودوا غيابي عن المنزل فلم يسألني أحد عن سبب غيابي. ذهبت إلى حيث منزل سلوى فلم ألحظ ما يثير الشك وبنفس الوقت فإنني لم ألحظ ما يبعث على الاطمئنان، كانت البوابة مغلقة والنوافذ كذلك والشرفة خالية ولذلك فقد أخذت أذرع الطريق ذهاباً وإياباً كما كنت أفعل دائماً من أجل لقاء سلوى، حيث لم يكن هناك وسيلة أخرى للاتصال، فأبقى أذهب وأعود إلى أن تخرج سلوى صدفة فتشاهدني فأومئ لها فتخرج إلى مكان متفق عليه وهذا ما كان في هذه المرة أيضاً فقد خرجت سلوى إلى الشرفة لأمرٍ ما فأومأت لها برأسي حيث تبعثني إلى المكان

المطلوب.

سألته كيف وصلت إلى البيت فأكدت أنها ركضت دون وعي ولم تتوقف إلا أمام المنزل ولا تعرف كيف وصلت فالتقطت أنفاسها ثم دخلت.

ولكن سلوى أكدت لي أنها تلقّت درساً لن تنساه في حياتها وأكدت أن هذا لن يتكرر أبداً وطلبت مني أن أتقدم لخطبتها إن كنت أحبها فعلاً فوافقت معها على ذلك.

رفضت أمي الأمر بشكلٍ قاطع، فعليّ أن أنهى الثانوية أولاً ثم عليّ أن أهتم بشؤون إخوتي وأداء خدمة العلم، وعدا ذلك فإنه ليس لدينا منزل وأنا لن أتمكن من إعالتها والكثير من الأسباب المانعة الأخرى التي استمعت إليها بهدوء ولكن الذي لم أتحملة هو وصف سلوى بالفتاة الساقطة مما جعل أعصابي تتشنج ومفاصلي ترتجف انفعالاً وخرجت صافقاً الباب خلفي وقد اتخذت في قرارة نفسي قراراً بالأعود إلى المنزل أبداً.

في المساء عند حافة دكان الحلاق الذي كنا نجلس فوقه عادةً أنا وبعض الأصدقاء قدم حسن اقتراحاً بدا معقولاً لحل مشكلتي بحيث أتزوج سلوى دون موافقة أهلي وعندما سأله ياسر عن الطريقة قال موجهاً كلامه لي :

- في منتهى البساطة. . نذهب و نخطبها لك.

دهشت لاقتراحه وقلت بلهجة لا تخلو من الازدراء :

- أنتم !؟

فقال :

- وماذا في ذلك فوالدك متوفى وليس لك أقارب ولذلك يقوم أصدقاؤك بخطبتها لك.

لم أقتنع بالفكرة ولكن إعجاب ياسر بها جعلني أوافق، فأخبرت سلوى بالأمر صباح اليوم التالي لكي تخبر أهلها بقدمونا وقبيل الظهر كنا ثلاثتنا نقرع البوابة التي فتحتها لنا أمها ودعتنا للدخول



بشكل يدل أنها على دراية بالأمر .

جلسنا في غرفة الضيوف جميعاً على كنبه واحدة قرب النافذة وقد انعقدت ألسنتنا وأخذنا نتأمل أرجاء الغرفة بانتظار قدوم والدها من العمل وكانت والدته سلوى قد قدمت لنا ثلاث أكواب من الشاي واختفت نهائياً، ولمدة نصف ساعة كاملة عمّ البيت صمتٌ ثقيلٌ لم يعكر صفوه شيء، إلى أن حضر والدها من الخارج حيث سمعنا انفتاح البوابة الحديدية وانصافها ثم سمعنا همهمة والدته سلوى وصوت والدها الجهوري يسأل بلهجة متشنجة :

- و أين هم الآن ؟

ولم يكذ والد سلوى يكمل سؤاله حتى كان حسن يقفز هارباً من فوق حافة النافذة ثم يتبعه ياسر ووجدت نفسي ربما بالعدوى أقوم بنفس الفعل .

برّر حسن ويأسر فعلتهما بعصبية والدها واتهماه بالتخلف وما إلى هنالك من الأوصاف التي تجعلهم خارج التأنيب، أما سلوى فلم تعد تلبي دعوتي أبداً ومنذ ذلك الوقت فشلت جميع محاولاتي في التحدث معها .

أثارت ذكرى سلوى في نفسي أشجاناً ما كنت أود ربطها بالفتاة النائمة على كتفي الآن ولذلك شطبت اسم سلوى أيضاً، فتبادر إلى ذهني اسم ندى .

ندى كانت زميلتي في الجامعة ثم تحولت إلى حبيبتي وكانت في منتهى الرومانسية ويمكن القول إننا عشقنا بعضنا بشكلٍ لا مثيل له وربما روميو وقيس وجميل وعنترة مجتمعين لم يصلوا إلى تلك الدرجة التي وصلت إليها في عشق ندى فقد كنت أتفلسفها بكل معنى الكلمة وغيابها عن حياتي كان يعني نهاية العالم وكانت أحرف اسمها الثلاثة معلقة في إطارات من الصَدَف على جدران غرفتي فالنون على الجدار الأيمن والداد على الجدار المواجه للباب والألف المقصورة على الجدار الأيسر، وفاق عدد القصائد التي كتبتها لها أيضاً ما كتبه عنترة وقيس وجميل ولو نشرت تلك القصائد في ذلك

الوقت فربما كنت اسماً لامعاً في عالم الشعر الآن، ولكنها كلها ضاعت مع ندى التي كنت أظن أنها في عشقها لي تتفوق أيضاً على عبلة وبثينة وليلي معاً، ولكنها أحرقت جميع تلك القصائد لكي لايعرف مروان أي شيء عن علاقتها بي كما أوضحت لي لاحقاً.

و مروان كان صديقي الحميم في الجامعة وكان يشاركني الغرفة التي أظننا بالحجر الأسود، ولكنه كان يكره ندى كرهاً لا مثيل له وكانت ندى تبادلته الكره نفسه، ولذلك كنت أتحاشى إثارة علاقتنا أمامه فكان يعتقد أنني وندى مجرد زميلين لا أكثر.

وفي صباح يوم جمعة باح لي بأمر يعذبه، فقد كانت ندى كما تبين تعكر صفو حياته، فهي منذ أسبوع لم تفارق مخيلته لا في اليقظة ولا في الحلم، وقد أَلَّف لها الكثير من القصائد كما أكد لي، وتجراً على قراءة تلك القصائد التي كانت تثير اشمئزازي، ليست لأنها موجهة لندى ولكن لأنها جميعها مسروقة من دواوين نزار قباني وشعراء آخرين وكان في بعضها مفردات جاهلية تعود لأحد أتراب أمراء القيس وزهير بن أبي سلمى.

ورغم كل ذلك فقد شعرت بالتفوق وأشفت على مروان لأن المرأة التي يكتب لها القصائد ويسهر الليالي مفكراً فيها تتعلق بأطراف ثوبي وتتشبث بي بأسنانها وأظافرها، وربما فكرت بالانتحار فيما لو هجرتها، ولم يكن ذلك مجرد ظن مغرور لدي فقد أكدت لي ندى ذلك عشرات المرات، ولكنني بدافع الغرور والسخرية نصحته :

- صارحها بالأمر.

وكنت أخفي ابتسامة خبيثة في صدري، أما هو فكأنه كان يدرى موقعه في قلبها، حيث سألني :

- أتعقد أن ندى ستقبل بواحد على شاكلتي ؟

طرح سؤاله بنبرة حزينة وغير واثقة، فيها من اليأس ما يجعل الإنسان يتعاطف معه فأخذت أعدد مناقبه التي تبدأ بوضعه المادي الملائم ولا تنتهي بكونه شاعراً مرهف الحس، فوجدتُ كلماتي في نفسه

صدىً إيجابياً عدل مزاجه وجعله أكثر مرحاً وتوهجاً.

في اليوم التالي قابلت ندى فسألتها إن قابلت مروان فطلبت مني ألا أذكر اسمه أمامها وتوجهت براحتها إلى السماء شاكرة الله أنها لم تتصبح به، وبعد الجلسة المعتادة في المقصف ودعت ندى وقد سكن الحزن عينيها لأنني سأغادر المدينة لمدة أسبوع.

أمضيت معظم وقتي في السوق للحصول على أغراض كان يجب أن آخذها معي وعدت إلى غرفتي في الحجر الأسود فلم أجد مروان في البيت ولكنني وجدت قضاصة معلقة على الباب كتب عليها بالخط العريض ( قمحة )، وهي عادة مألوفة عند مروان، فقد كان سريع الحزن وسريع الفرح، أي نجاح مهما كان صغيراً كان بالنسبة له (قمحة) وأي فشل كان (شعيرة) ولذلك فلم أفهم في أي مجال كانت قمحته فحزمت حقيبتني و قبل أن أخرج كتبت له في أسفل القضاصة (مبروك). وعندما عدت من غيبتني بعد أسبوع لم أجد مروان كذلك في الغرفة، ولكنني وجدت على الطاولة مظروفاً مكتوباً عليه اسمي ففتحته وإذا فيه بطاقة دعوى لحفل زفاف فلم أصدق ما رأيت، لقد كان العريس مروان والعروس ندى.

قررت أن أحطم مروان عندما يأتي إلى الغرفة، وكنت أتوقع أنني سأنقض عليه وأشبعه ضرباً ولن أتركه قبل أن تخدم أنفاسه، غير أنه بعد لحظات دخل إلى الغرفة قادماً من الخارج وعلى وجهه ابتسامة بريئة وعانقني فرحاً ثم قال :

- بارك لي. . لقد نفعنتي نصيحتك، فاتحتها بالأمر فوافقت دون تفكير، لم أتوقع

أن كل ذلك سيتم في هذه السهولة...

وتابع شرح التفاصيل التي غاب عنها ذهني في دوامة الصدمة التي أحدثها هذا الأمر. لقد حدث ذلك قبل أسبوع على نفس الطاولة التي اجتمعت حولها بندي وبعد خمس دقائق من مغادرتي للمكان ومن شكر ندى للسماء لأنها لم تتصبح بمروان.

مضت ثلاثة أيام صعبة قبل أن أتمكن من مقابلة ندى التي كانت منهمكة في شراء جهاز عرسها، لقد كانت ندى فتاة أخرى غير تلك التي عرفتتها قبل أسبوع حتى أنها رفضت مصافحتي متبعة مقولة «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، وعندما سألتها عن سبب هذا الانقلاب المفاجئ بررت ذلك بأنها امرأة غايتها الزواج وعندما ذكرتها بالحب الذي كان يجمعنا، أعلنت أن ذلك كان يتهياً لها وعن كرهها لمروان قالت إنها لم تعد تكرهه وإنما ستهيم به حباً عندما يصبح أباً لأولادها وعندما سألتها إن كنت أنا لا أنفع أباً لأولادها قالت :

- لمحتُ لك كثيراً وكثيراً، لكنك لم تقم بأي مبادرة.

وعندما ذكرتها بأنني وعدتها بالزواج بعد الانتهاء من خدمة العلم قالت ببساطة متناهية :

- عندما تنتهي من أداء خدمة العلم ستجد الكثيرات من الفتيات بإمكانك أن تحب واحدة منهن.

وعندما طلبت القصائد صفعنتني بأنها أحرقتها جميعاً.

أرغمني مروان على حضور حفل الزفاف غير مدرك لما أعانيه من آلام، وجرتني جراً إلى حلقة الدبكة فكنت كمن يرقص في جنازته، ثم مضت أشهر ثقيلة تحولت فيها مشاعر الحب نحو ندى إلى مشاعر احتقار وحقده، ثم أقنعت نفسي بأنها ليست الفتاة التي تستحق أن أموت حزناً لفراقها، ثم طويت صفحة هذا الحب

وتقلصت العلاقة مع مروان وندى إلى أبعد الحدود لدرجة أنني بعد الجامعة لم أعد أسمع من أخبارهما شيئاً.

شطبت اسم ندى أيضاً من قائمة الأسماء التي أفتش فيها عن اسم للفتاة الغافية على كتفي، ثم نظرت إليها وكأنني اجري مقارنة بينها وبين ندى وكم كانت دهشتي كبيرة حين أخذت أكتشف الآن كم

كانت ندى غير جميلة، كانت قاسية الملامح مثل رجل خاض الكثير من المعارك الدامية، وقصيرة القامة، وتذكرت رديها اللذين كنت أظنهما مجتمعين يشبهان أجاصة ، لقد كانا منتقخين بشكل غير متلائم مع كنفها الضيقين إلى أبعد الحدود ومع ساقبها النحيفتين، لقد كانت أشبه بباذنجانة تمشي على عودي ثقاب، ابتسمت لسذاجتي في ذلك الحين وقلت في نفسي : (هل يعقل أن تكون ندامراً وسوزان أيضاً امرأة!!!!!!؟)

سوزان. . نعم سوزان، إنه الاسم الذي حضر إلى مخيلتي دون استدعاء وهو اسم لائق وملائم فهو جديد في تاريخ حياتي ومتداول في جميع أنحاء المعمورة.

عدت إلى الصالون الفخم الذي كنت أطلع فيه جريدة الصباح وكانت سوزان تخرج من المطبخ تحمل « صينية» عليها فنجانا قهوة فوبختها متصنعاً الاهتمام :

- هذا لا يجوز يا سوزان ، لا ينبغي أن تتعبي نفسك، حافظاً على سلامة طفلنا ... فلنقم الخادمة بصنع القهوة.

فردت سوزان بابتسامة يملؤها الحب :

- وهل يعقل أن تشرب قهوتك من يدي الخادمة وأنا موجودة؟

وقد كان هذا بالتحديد ما أردت سماعه مما جعلني أشعر بالسرور وأبتسم معرباً عن الدفء الذي أكنه لها.

ثم حدثت نفسي بارتياح ( إما أن تكون النساء مثل سوزان

وإما فلا، أين سلوى وندى وميساء من سوزان ؟ . . هيهات ) .

ولكنني سرعان ما ضحكت من نفسي لأنني اخترت الصالون الفخم الذي كنت أطلع فيه جريدة الصباح مكانا للحب وسخرت عندما تذكرت أن فيه خادمة، فأنا الساكن الوحيد الذي يتأخر في تسديد

المبلغ المطلوب للمرأة التي تتظف درج المبنى الذي أظنه، ثم إن أرسنقراطية المكان جعلت الموقف خالياً من الرومانسية ، والجنين الذي كان في بطنها المنتفخ جعل مشاعر الأبوة لدي تغطي على مشاعر الحب مما دفعني لمسح تلك الصورة فوراً ثم اتخذت قراراً بأن تبدأ قصة حبنا فوق جزيرة غير مأهولة. فأخذت أركض على شاطئ البحر خلف سوزان التي كانت ترتدي ثوباً أبيض شفافاً سلطت عليه أضواء زرقاء.

دائماً يتسلل هذا المشهد إلى خيالات الحب عندي، ولكن لا بأس لن أتفرغ للبحث عن بديل له فقد أتأخر عن اللحاق بسوزان، كانت سوزان تنظر إلى الخلف وتضحك مني وكانت تفصل بيننا مسافة لا تتجاوز الثلاثة أمتار، فضربت على صدري مثل طرزان وصرخت مثله أيضاً وضاعفت سرعتي فدخلت سوزان في الماء ثم دخلت خلفها وأخذت المسافة بيننا تتقلص حتى بلغت النصف متر فقفزت إلى الأمام وأوشكت يدي أن تمسك بطرف ثوبها عندما أرسلت مكابح الميترودويها الحاد الذي تصدره كلما توقفت على إحدى المحطات.

قمت بجولة استطلاعية فوجدت الرجل الذي يجلس قبالي من جديد في حالة من التسلسل لأن ثوب سوزان كان قد انحسر من جديد بفعل التزاحم فقامت بإعادة الثوب إلى وضعه الطبيعي فارتسمت على وجهه ملامح الاستياء وكأني به يقول متذمراً :

- خذ ما لك واترك ما لنا.

ولكنه ربما كان يجهل التطورات التي حصلت بيني وبين سوزان والتي تجعلها لي بكافة مسامها، ولذلك فإنني لم أوافق اقتراحه وتابعت مقارعتي بعينين ساخطين مما جعله في نهاية المطاف ينسحب على مضض فقبلت الهدنة ونظرت إلى المرأة العجوز فكانت لا تزال تجلس في المكان الذي أخلي لها سابقاً متابعاً النظر نحوي، ولكن مسحة الكراهية التي كانت تغطي على نظراتها قد اختفت وحلت محلها نظرة دافئة وكأنما كانت تقرأ ما يدور في داخلي وتشاهد شريط تخيلاتي، فابتسمت لي غامزةً

بعينها في إشارة إلى أنها تقدر وضعي مما جعلني أشكرها بابتسامة مماثلة وأشعر بالارتياح. بعد أن رتبت أموري في عربة المترو عدت إلى سوزان من جديد فوجدتها تصعد من الماء إلى شاطئ الجزيرة ثم ترتمي على الرمل متعبة فخرجت بدوري من الماء وارتيمت قريبا، ولم نفعل شيئا سوى التحديق في قبة السماء التي كانت تعبرها نتف من الغيم، فغفوت دون أن أشعر، وعندما فتحت عيني كانت السماء كحلية اللون تتخللها النجوم كثقوب في جدار كتيم خلفه ضوء وهاج، وهذا ما كان يبعث القلق في نفسي أحيانا، فعندما تنوس نجمة أو تختفي كان يتهيا لي أن أحدا قد سد الثقب بعينه التي تراقبنا من خلاله.

بنيت لها على الجزيرة كوخاً من الأغصان فرشته بالقش وعلقت على جدرانه لوحات خشبية رسمت عليها بالصلصال والأعشاب مناظر بدائية، وحول الكوخ زرعت بستانا من الورود ثم تجمع في الفناء عدد من رؤوس الماعز والأغنام والأبقار وبضعة طيور من الدجاج فأخذت سوزان تجمع البيض وتحلب الماشية وتحولت إلى ربة بيت من الطراز الأول مما أفسد شفافية الحلم، وأكثر ما كان يزعجني ذلك الكلب الذي لا يتوقف عن النباح وكأن اللصوص لا يقطعون عن الاقتراب من كوخنا.

وعدا عن عدم حاجتنا إلى الطعام والشراب كوننا أبناء حلم فإننا لم نكن بحاجة إلى هؤلاء الشركاء الذين كانوا يقضون مضجعي بثغائهم و خوارهم وضجيجهم الذي لا مبرر له ولكنني تحملتهم فقط لأن وجودهم كان يبعث الفرح في نفس سوزان.

ولكنني صبيحة ذلك اليوم فقدت صبري تجاههم وكانت تلك هي الحادثة الأولى التي عكرت صفو علاقتي مع سوزان، فقد استيقظت في الصباح الباكر وقد عقدت العزم على تقديم باقة من الورد البري تبعث الفرح في نفس سوزان فغادرت الكوخ قبل أن تستيقظ من النوم وأخذت أجمع باقتي المنشودة. كانت الورد كثيرة ومتنوعة فاتخذت قراري بأن تدخل جميعها في تلك الباقة وأخذت أنتقي من كل

نوع من الورود أجمل الوردات وكثيراً ما سحبت وردةً ورميت بها لأنني عثرت على وردةٍ أجمل منها من نفس فصيلتها، حتى جمعت باقة ليس فيها وردتان متشابهتان وتخيل لي أنه مرمن الوقت ساعة لأكثر عندما كنت قد انتهيت من جمع تلك الباقة ولكن قرص الشمس الأحمر والشفق الأرجواني الداكن الذي امتد أسفله فوق حافة البحر جعلاني أدرك أن النهار بطوله قد انصرم وأن الظلام على وشك أن يحل، نظرت خلفي باتجاه عمق الجزيرة لكي أحدد موقعي فرأيت منحدرًا صخرياً يحجب ما وراءه فقررت الصعود إلى قمته لمعرفة الطريق التي يجب اتباعها نحو الكوخ.

أدمت النتوءات الصخرية قدمي وركبتي قبل أن تمكثني من بلوغ القمة التي وقفت أعلاها وأخذت أتجول بنظري محاولاً اكتشاف موقع الكوخ ولكن أشجار الدغل التي كانت تمتد خلف المنحدر الصخري كانت تحجب ما وراءه أيضاً ولذلك لم أتمكن من رؤية الكوخ أو الشاطئ المقابل، وكدت أفقد الأمل في تحديد طريقي عندما تصاعد خيط واه من الدخان في الجهة المقابلة من الجزيرة فأدركت أنني أقع في الطرف النقيض، وأنني إذا عدت سالكاً نفس الطريق التي اتبعتها في المجيء فإنني لن أصل قبل حلول الفجر، ولهذا فقد قررت اختراق الدغل اختصاراً للطريق، وبدأت على الفور بالانحدار نحوه غير عابئ بالنتوءات والحروف الحجرية الحادة التي تابعت تجريح قدمي ولا بالأشواك التي كانت تنبت أسفل سفحه والتي لم تترك مساماً واحداً تحت ركبتي لم تخزه.

دخلت الدغل فكان شبه مظلم وكانت مسافة الرؤية لا تمتد لأكثر من متر، فقد نمت فيه الأشجار بشكل عشوائي وكنت وكأني أمام جدار، وكانت الأرض مليئة بالعليق والحطب الحاد الرؤوس الذي تشكل من الأغصان التي قصعتها العواصف والصواعق فلم تعد الوخزات تكنفي بقدمي وساقبي بل وصلت إلى ذقني وظهري وتحت إبطي، ووصلت إلى متاهات وطرق مسدودة ولكن العودة إلى الخلف أصبحت في وسط هذا الدغل لا تختلف في شيء عن التقدم إلى الأمام، ولهذا قررت ألا أغير وجهتي أو ألتف لكي لا أضيع الطريق فكنت أتجاوز أدغال العليق تارة بإلقاء الأغصان فوقها وتارة أخرى



بالزحف تحتها ولم أنس طوال ذلك الوقت الحفاظ على باقة الورد في و ضع يحافظ على جميع ورداتها فتارة أحميها بصدري وتارة أحميها بظهري إلى أن تجاوزت الدغل، حيث وجدت نفسي عند حافة مستنقع يشكل فوقه البعوض غماماتٍ متفرقةً تصدر أزيزاً مزعجاً وما لبث البعوض أن أخذ ينهش جسدي، فكنت أكشهُ بعد أن أشعر بوخزاته ، ولكن دون جدوى فسرعان ما أخذ جسمي يحكني في مختلف الأماكن وخاصةً في رقبتي، وتبادر إلى ذهني لوهلة أن أعود من حيث أتيت ولكنني أدركت أنني قطعت على نفسي طريق العودة وفضلت خوض المستنقع على الضياع في شعاب الدغل فهنا على الأقل سماءٌ مكشوفة.

بحثت عن غصنٍ طويل أنكئ عليه في خوض الوحل ثم انطلقت إلى الأمام لا أروي على قطعان البعوض التي تابعت نهش جسدي، وكنت أحرص دائماً على باقة الزهور مرفوعة إلى الأعلى لكي لا تتلطح بالوحل الذي غطى وسطي، وبعد أن قطعت مسافة ليست بالقليلة لم أعد أتحمل لسعات البعوض التي أخذت تحرق وجهي وكتفي فتوقفت للحظة وأخذت أحك بأظفري حتى تهيأ لي أن جلدي قد تمزق ثم اتكأت على العصا وحاولت التقدم إلى الأمام ولكنني لم أتمكن من رفع قدمي وتهيأ لي أن مخلوقاً قوياً تحت الأرض يمسك بهما بكلتا قبضتيه فأصبت بالرعب الذي كاد يتحول إلى هستيريا، وأخذت أضغط على العصا وأشد قدمي اليمنى إلى الأعلى في محاولة للإفلات من الطين ولكن الطين كان يطبق بقبضتيه أكثر وكدت ألقى بباقه الورد التي تبادر إلى ذهني أنها السبب في كل هذا، ولكنني عدت عن قراري بدافع الأمل بالخلاص من هذا المستنقع، والذي لم يكن بعد قد تبدد نهائياً، وصممت على الحفاظ على الباقه حتى آخر رمق، وإذا كان لا بد للوحل من ابتلاعها فليكن ذلك بعد أن يبتلعني، وأكثر ما كان يحز في نفسي أن سوزان كانت ستبقى وحيدة على ظهر الجزيرة فيما لو ابتلعني المستنقع، ولمت نفسي لأنني أحضرتها إلى هنا واتهمت نفسي بالأنانية وربما هذا ما بعث في القوة التي جعلت قدمي تتخلخل قليلاً في الوحل ثم تتسحب.

خطوت خطوة إلى الأمام وسحبت القدم الثانية بعد عناءٍ كبير، ثم فكرت بالعودة واختيار طريق أخرى فلا بد أن المستنقع سيبتلعني قبل أن أتجاوزه، نظرت إلى الخلف فكان الظلام قد حجب حافة المستنقع والدغل ولم أعد أعرف إن كانت المسافة المتبقية أكثر من المسافة التي قطعتها أو العكس ولذلك عدت عن قراري وصممت في نفسي ( إلى الأمام فقط إلى الأمام ) وتابعت سيرتي ولم أعد أشعر بلسعات البعوض، ولكنني أخذت أفقد الأمل بأنه سيكون لذلك المستنقع نهاية، فقد كنت أشعر أنني أتقدم بالسنتيمترات بل ربما بالميليمترات ولكنني كنت أدرك تماماً أن ذلك أفضل من التوقف، فتابعت المقاومة رغم أن قواي أخذت تخور وفكرت عدة مرات بالتوقف لأخذ قسطاً من الراحة ولكنني عدلت عن ذلك لأن الوحل لا يتوانى عن ابتلاع الكتل الواقعة وقررت أنه إذا تحتم علي أن أنتهي في بطن المستنقع فليكن ذلك وأنا في حالة إغماء، وأخيراً اصطدمت قدماي بأرض صلبة فاستبشرت خيراً وأدركت أنني تجاوزت المستنقع فجلست لدقائق استرديت خلالها أنفاسي ثم قررت متابعة المسير وسرعان ما اكتشفت أن تلك الأرض الصلبة لم تكن سوى جزيرة صغيرة في وسط المستنقع، وراودني أمل بأن هذه الجزيرة ربما تكون علامة على أن نهاية المستنقع قريبة، ولكنني تجاوزت مسافة غير قليلة ولم أعر على أرض صلبة أخرى وندمت لأنني لم أبقَ على تلك الجزيرة حتى الفجر فأتبين طريقي ولكنني أيضاً كنت أدرك أن الندم لم يعد ينفذ الآن وتابعت لا أفكر في شيء يثبط من عزمي في التقدم وكانت باقة الزهور مرفوعة مثل مشعل تمثال الحرية لكي لا تتلخخ بالوحل، ولم أتوقف حتى اصطدمت بأرض صلبة أخرى اعتقدت أنها جزيرة في المستنقع فقررت البقاء فوقها حتى يرسل الفجر خيوطه الأولى وهذا ما فعلته، غير أنني سرعان ما غفوت من الإرهاق، وعندما أفقت بسبب الألم، تهيأ لي أنني غفوت لدقيقة واحدة ولكن الضوء الطفيف الذي كان يكشف مجاهل المكان كان يدل على أنني غفوت لساعة أو أكثر و تبين أنني على حافة دغل آخر فتحاملت على نفسي ونهضت ودخلت الدغل الذي كان بعد المستنقع أمراً تافهاً وسرعان ما تجاوزته لأصل إلى سفح صخري بلغت قمته دون عناء

يذكر، ومن هناك نظرت نحو الشاطئ فرأيت الكوخ الذي بدا قريباً وكانت الشمس قد ألفت بأشعتها الباردة عليه وعلى السفح الذي أقف في قمته، وشاهدت سوزان واقفة أمامه تلف على كتفيها شالاً وتنتظر نحو البحر وكأنها تنتظر قدومي منه، أخذت أنحدر باتجاه الكوخ محاولاً ألا أحدث ضجة ساعياً لأن تكون عودتي مفاجأة سارة ولكنني تأملت ما أستطيع رؤيته من جسدي فاكتشفت أنني أشبه بكائن خرافي بسبب الدم الذي اختلط مع الوحل العالق في جسدي وأدركت أن منظري هذا لا بد سيبحث الرعب والقلق في نفس سوزان، ولهذا فقد اتخذت قراراً بالانحراف قليلاً عن الكوخ والاستحمام بمياه البحر الكفيلة بغسل الوحول وتعقيم الجروح ثم الذهاب بشكل لائق إلى سوزان، وهذا ما فعلته، فقد وضعتُ باقة الورود على صخرة ونزلت إلى الماء فشعرت بالنار تلتهم جسدي المدمى، ثم خرجت من الماء وقد تطهرت تماماً من الأوساخ التي كانت عالقة بي وانبعثت في حيوية مباغته وتوجهت إلى الصخرة التي وضعت فوقها باقة الزهور، فوجدت تيساً يقضم آخر زهرة من باقتي الدامية، وكانت السيقان الخضراء مبعثرة على الأرض بشكل عشوائي مما أثار في نفسي غضباً عظيماً ورفعت حجراً رميت به التيس بكل ما أوتيت من قوة فولى هارباً باتجاه الكوخ.

ثم توجهت إلى الزريبة حاقداً على سكانها وفتحت الأبواب وأخذت أصرخ طارداً من فيها بعصا كنت ألوح بها بشكل جنوني مما جعل الحيوانات تتراكم هائمة على وجهها في كافة الاتجاهات، ولم آبه بتوسلات سوزان التي لحقت بالحيوانات وأمسكت برقبة بقرة أخذت تشدها محاولة إعادتها، أما الكلب فقد رفض مغادرة المكان، ولم تسمح له تقاليد الكلبية بالتأثر بالإهانة التي وجهتها له، حيث كان يقف مواجهتي على قائمته الخلفيتين ناظراً إليّ نظرة متفهمة وكأنه شريكي، أزعجتني هذه النظرة التي ساوت بيننا وجعلتني أشعر بالإهانة مما دفعني لكي ألوح بالعصا في وجهه صارخاً :

- انقلع. . أنت واحد منهم ... و. قرار الطرد لا يستثنيك.

فانقلبت نظرة التفهم في عينيه إلى نظرة متوسلة، فأفهمته أنه لاعظام لدي أرميها له وأنتي لم أغادر العالم

المأهول إلى هذه الجزيرة من أجل تربية الكلاب، فتبدلت نظرة التوسل إلى نظرة عاتبة مفادها أنه أيضاً كلب حلم لا حاجة به للعظام وأنه لا يطمع بأكثر من الصداقة فأفهمته أنني لست بحاجة للأصدقاء وأن لدي الكثير منهم بين بني البشر وفي مختلف القارات والبلدان، وأني تركتهم جميعاً لكي أنعم بالجنة التي بنيتها وحدي ومع سوزان فقط، لا لكي أصادق كلباً لا أصل له ولا فصل، فاغرورقت عيناه بالدموع واستدار حزيناً مما أثار الشفقة في نفسي، وكانت ثورتي قد هدأت قليلاً فسمحت له بالبقاء شرط ألا يرافقنا إلى أي مكان ولا أدري إن كان قد قبل بالشرط عن قناعة أم أنه تصنع بالقبول، حيث أن ما حدث بعد ذلك وضعه على هامش الأحداث.

لم تفلح سوزان في لمّ شمل الحيوانات الهائمة فصبت جام غضبها علي أنا، وأخذت تؤنّبني كما لو أن تلك الأغنام والأبقار أهم لديها مني فلم تسمح لي رجولتي بتحمل ذلك وصرخت في وجهها غاضباً :  
- أنا تزوجت سوزان ولم أتزوج بريجيت باردو حتى تعطي هذه الحيوانات هذه الأهمية.  
ثم وضعتها على المحك وأردفت :

- إما أنا وإما تلك الحيوانات.

فانصرفت دون أن تتطرق بكلمة واحدة ولحق بها الكلب هازماً ذيله وكأنه يقول لا حاجة لي بك.  
دخلت إلى الكوخ وارتيميت على القش وسرعان ما غفوت، وعندما استيقظت كانت تتبعث في جسدي رعشة من البرد وكنت أرتجف فيما يشبه البردية وكانت نفسي قد هدأت تماماً وخرجت إلى الخارج متصوراً أن سوزان تجلس على الشاطئ تتأمل الأمواج كما تفعل في المساء عادةً، ولكنني لم أجد لها.  
بحثت حول الكوخ فلم أعثر لها على أثر ناديتها فلم ترد، دخلت إلى الكوخ ورميت على كتفي بعض الأسماك في محاولة للتخلص من نوبة البردية التي تغلغلت حتى العظام ولكنني كنت كلما شددت الأسماك أكثر كلما ازدادت القشعريرة حدةً، تابعت البحث حتى حل الظلام دون جدوى مما بعث في نفسي القلق، فقد تكون غرقت أثناء السباحة، أو أنها توغلت في البحر فغاب الشاطئ عن عينيها،

ولكنني لم أستسلم لهذه الفكرة السوداء فعدت إلى الكوخ وصنعت مشعلاً حملته وأخذت أصدع السفح الذي انحدرت فوقه صباحاً، وعندما تخيل لي أنني وصلت إلى القمة أخذت أصرخ بأعلى صوتي منادياً إياها وملوحاً بالمشعل لكي تتمكن من تحديد مكاني إن كانت تائهة، ولكن دون جدوى فقد خبت شعلتني دون أن أجد رداً، فعدت إلى الكوخ وكانت حالة من الهذيان بدأت تسيطر علي.

لا أدري كم من الوقت مضى عندما أفقت من غيبوبة الحمى التي أصابتنني، ولكنني زحفت إلى خارج الكوخ وأخذت أنادي بصوتٍ يأس فكان الرد دائماً صمتاً أكثر يأساً من حشرجاتي. تماثلت بعد أيام للشفاء وتفرغت للبحث عن سوزان، وجبت الجزيرة كلها، قلبت الأحجار وتسقلت الأشجار وقطعت ذلك المستنقع ذهاباً وإياباً عدة مرات وأمضيت بالأدغال ليالي كثيرة، شهر كامل مضى ولم أعر على أثر لها، حتى الحيوانات اختفت من الجزيرة.

شعرت باليأس، لكنني لم أكن قادراً على اتخاذ قرار بوقف البحث، فقد ظل قلبي محافظاً على خيط الأمل الواهي بأنها لاتزال على قيد الحياة، خاصة أنني لم أعر على دليل واحد يدل على موتها فلو كان البحر قد ابتلعها لكان لفظ جثتها لاحقاً ولكنه لم يفعل ذلك مما يدل على أنه لا علاقة له بالموضوع، أما المستنقع فلم يكن هناك مبرر لذهابها إليه، ولكنني بعد مضي شهر من البحث أدركت أن سوزان لم يعد لها وجود، غير أنني تابعت البحث لأن ذلك أصبح عملاً يومياً لي وأصبح مبرر وجودي.

وفي اليوم الأربعين لاختفاء سوزان أدركت أنني إنما أبحث عن وهم اخترعته لكي أبرر لنفسي عدم الانتحار وعزمت بشكل نهائي على اتخاذ القرار الصعب بتقديم نفسي وليمة لأسماك البحر، فتوجهت إلى الكوخ وأضرمت فيه النار ثم جلست قبالته أراقب ألسنة اللهب التي كانت تتصاعد منه، وعندما تحول الكوخ إلى رماد أخذت تذريره الرياح قفزت إلى الماء من فوق الصخرة التي كنت أجلس فوقها،

وأخذت أسبح متغلغلاً إلى عرض البحر، وما أن قطعت مسافة في الماء حتى تخيل لي أنني سمعت صوتاً يناديني من الخلف فاستدرت نحو الشاطئ وإذا بسوزان تقف على نفس الصخرة التي قفرت من فوقها يلعب الهواء أطراف ثوبها وتلوح لي بمنديل طالبة النجدة، فأدركت أنها كانت تتقصد الاختفاء طيلة الأربعين يوماً التي أمضيتها في البحث عنها، وانتقاماً منها على ما فعلته قررت ألا أعود فتابعته توغلي باتجاه العمق ثم سمعت صوتها يناديني بنبرة مفعمة بالتوسل، ولكنني لم أعرها اهتماماً وإنما أخذت أتقدم بسرعة أكبر فسمعت عويلها الذي أخذ يمزق الفضاء، ولم يعد بوسعي تجاهلها فاستدرت تجاهها واذ بها تتقدم في الماء صارخة بشكل جنوني، فقررت العودة إليها وأخذت أسبح نحوها بينما توقفت هي مكانها في انتظاري وقد غمرها الماء إلى صدرها، كنت أراها تراقبني ماسحة الدموع عن عينيها بظهر يدها عندما شعرت بأن كتفي تيبسا تماماً ويدي أضحتا عاجزتين عن الحركة، فأدركت أنني على وشك الانهيار وأني قد فقدت قواي ولكن سوزان التي كانت تنتظرنني على مقربة من الشاطئ بعثت في جسدي قوة إضافية جعلتني أتقدم عدة أمتار أخرى ثم خمدت من جديد، ولكنني استجمعت قواي وتقدمت عدة سنتيمترات، غير أنني كنت عاجزاً عن فعل أكثر من هذا فأخذت أنثبث بالهواء ثم شعرت بنفسي مقيداً بالحبال فحاولت التخلص من هذه الحبال ولكن عبثاً فقد أخذت تشدني إلى الأسفل وكانت سوزان والشاطئ يختفيان عن ناظري شيئاً فشيئاً.

أفقت من الكابوس على الفور شاهقاً ملتقطاً أنفاسي مما جعل الركاب المحيطين بي في عربة المترو يلتفتون نحوي باستغراب مما جعلني أشعر بالإحراج، ولكنني تجاهلت نظراتهم والتفت إلى سوزان التي كانت لا تزال مستغرقة فوق كتفي فأحسست بالاطمئنان ثم ألقيت نظرة نحو العجوز فوجدتها قد غادرت العربة، ولكن الرجل الذي كان يجلس قبالي كان يحرق من جديد تحت ثوب سوزان الذي انحسر بفعل التزاحم ونشبت بيننا معركة جديدة أبدى فيها مقاومة واضحة ولكنها لم تكن في مستوى هجومي الانتحاري مما أجبره على التحديق بسقف العربة متلافياً نظراتي الحارقة الخارقة، فانشغلت عنه بما

حدث فوق الجزيرة ولمت نفسي لأنني سمحت لتلك الحيوانات بالتسلل إلى اللحم، فلولا ذلك التيس الذي أكل باقة الورد لما حصل ما حصل بيني وبين سوزان، ولذلك فقد قررت العودة إلى الجزيرة على وجه السرعة ثم تابعت اللحم بدون التيس فقدمت باقة الزهور لسوزان التي رأيت الفرح يقطر من عينيها وهي تتناولها ثم تضميني إلى صدرها وتطبع على شفتي قبلة.

- تقو . . اللعنة عليكم جميعاً.

صرخ أحدهم فوق رأسي فأخرجني من اللحم من جديد.

نظرت باتجاه الصوت فإذا برجل تعتعه السكر بالكاد يقف على رجليه قد وقف في وسط العربة رافعاً يده بحركة سابقة ونسي أن يعيدها إلى وضعها الطبيعي يحدق في وجوه الركاب الواحد تلو الآخر بنظرات فيها ازدراء بالغ وقد زم شفتيه وعقد حاجبيه ثم أردف :

- جميعاً.

و كأنما ليؤكد أنه لا يستثني أحداً.

التف القطار عند منعطف حاد في داخل النفق ففقد الرجل توازنه وخطا خطوات جانبية غير واثقة متلافياً السقوط ولكننه لم ينجح إذ أنه سرعان ما ترنح فوق أرض العربة ثم أخذ ينهض بصعوبة بالغة فجثا على ركبتيه ونهض مستنداً براحتيه على ركبتي امرأة متوسطة العمر بدينة بعض الشيء فنظر في وجهها ملياً وكأنه يتأملها وألقى عليها التحية :

- مساء الخير . .

أما هي فقد أشاحت بوجهها عنه شاعرةً بالقرف.

بينما أعلن السكير مرةً أخرى بصوتٍ أكثر ثقةً ملوحاً بيده في الهواء مشيراً بسبابته إلى الأعلى راسماً بها نصف دائرة في الهواء وكأنه على وشك إلقاء خطبة :

- اللعنة عليكم جميعاً.

ونسي يده مرفوعة في الهواء ثم أكد زاماً شفثيه عاقداً حاجبيه :  
-جميعاً.

وانعطف القطار من جديد فسقط الرجل مرة أخرى ثم نهض مستنداً على ركبتي تلك المرأة ولم ينس أن يلقي عليها التحية أثناء صعوده.

- صباح الخير .

فأشاحت المرأة بوجهها كما فعلت في المرة الأولى، رفع الرجل يده في الهواء وهم بتكرار عبارته التي اعتاد قولها ولكنه لسبب ما غير رأيه وترك يده تترنح وقال بقرف . .  
- تقو . .

وهذا ما جعل امرأة تخرج عن طورها وتوبخه فرد عليها بكلمات نابية مؤكداً أنها لو لم تكن امرأة لمزقتها إرباً ثم أردف..

- في الفراش على الرحب والسعة أما في عربة المترو فلا.

ثم قرأ عليها درساً في الأخلاق مذكراً إياها بوجود الكثير من الركاب في العربة وأخذ يتحدث كما لو أن المرأة طلبت منه أن يضاجعها في عربة المترو مما دفع المرأة للاستغاثة.

- هل من رجال . . هل من رجال هنا.

و لكن كل واحد من الرجال كان قد انشغل بأمر ما وكأنه كان يتوقع حدوث ذلك مما جعل المرأة تبصق باتجاه الرجال بنفس طريقة السكير:

- تقو ...

تبادر إلى ذهني النهوض والدفاع عن تلك المرأة ولكن المأثرة لم تكن بحجم التضحية فإذا استفاقت سوزان ربما يفسد الحلم وتغور جزيرتي إلى قاع المحيط ولذلك أسرع بالعودة إليها كيلا أفسح المجال بارتكاب مثل هذه الحماسة.



كنت مستلقياً فوق القش الذي فرشت به الكوخ بينما كانت سوزان خارج الكوخ تجلس عند الشاطئ كعادتها وكانت نسמת يهياً لي أنها محملة بأريج عطر، تتلاعب في أركان الكوخ عابرة إياه من نافذة إلى نافذة، وكان صمت نقي أشبه ما يكون بالينابيع العذبة الراكدة يخيم على المكان ونعاس حلو المذاق يداعب أجناني وخلفه آلاف الأحلام الوردية التي تسكنها سوزان فلم أتمكن من مقاومته وغفوت، فوجدت نفسي أضم سوزان إلى صدري وكنت على وشك تقبيلها عندما دوت صرخاتها خارج الكوخ مما جعلني أنتفض كالمسوع وأركض إلى الخارج.

رأيت سوزان تقف على رؤوس أصابعها فوق صخرة برزت من بين الأمواج وجهها نحو البحر تلوح بمنديلها الأبيض، نظرت إلى الأفق المحدب إلى حيث كانت تتوجه سوزان، فشاهدت سفينة بعيدة بدت كفردة حذاء تطفو فوق سطح الماء، فركضت إلى سوزان وقد دب الرعب في قلبي، سحبتها من يدها اليسرى وأنزلتها إلى الماء صارخاً بوجهها بشكل هستيري:

- ما الذي فعلينه ؟
- ألوح لتلك السفينة.
- لماذا ؟
- لكي نتقذنا.
- لسنا في خطر.
- رددت على مبررات سوزان التي لم تفهم تصرفي فأجابت :
- نعم ولكن هل سنعيش وحدنا مدى الحياة ؟
- وإلى أين تريدان الذهاب ؟
- إلى أي مدينة يمكن أن نخالط فيها البشر .

- البشر؟! البشر!؟!

تساءلت بلهجة مفعمة بالحقد والقرف ثم أردفت منفعلاً :

- البشر الذين تتحدثين عنهم يموتون مرتين لكي يحصلوا على غرفة ضيقة سطحها منخفض يتنفسون فيها دخان السيارات والمصانع ويأكلون الأغذية المصنوعة من كافة سموم الكيمياء أما نحن فقد وهبنا الله جزيرة بأكملها، فيها أنا وكل ما ترغيبين، وبعد كل هذا ترفسين النعيم وتسعين بقدميك إلى الجحيم؟

صمتت سوزان وقد أثرت فيها كلماتي ثم اقترحت حلاً وسطاً :

- حسناً، ليس من الضروري أن نترك الجزيرة، ولكن ربما نجد صلة مع العالم الخارجي، نحصل على مركب ونبحر في رحلات إلى أماكن مأهولة لنعرف ما يجري على الأقل.

- ما الذي تودين معرفته، هل تتشاقين لرؤيتهم يذبحون بعضهم البعض في كل زاوية من زوايا المعمورة؟ أم ماذا؟

- نبحث عن أصدقاء، عدد محدود من الأصدقاء فقط، نتبادل الزيارات..و..و ... قاطعتها منفعلاً بلهجة يشوبها الاشمئزاز :

- أصدقاء؟! لا أدري من الذي اخترع هذه الكلمة ولكن الذي أعرفه تماماً أنه لا وجود لما تعبر هذه المفردة عنه في هذا العالم، هناك مصالح متبادلة، يمصون دماء بعضهم البعض ولكي لا تؤنبهم ضمائرهم اخترعوا مثل هذه المفردات السخيفة، هل عرفت الآن ماذا تعني كلمة صديق!؟

فردت غير مقتنعة بكلامي :

- أنت تبالغ.

فأخذت أشرح لها بالتفصيل :

- أنا لا أبالغ، هل تعرفين ماذا سيحدث إذا علم أحد بوجود هذه الجزيرة؟!

لم تتساءل سوزان فأردفت مجيباً على سؤالي الذي طرحته:

- سيتهافتون إلى هذه الجزيرة كالذئب الجائعة على نعجة متخمة عاجزة عن الهرب ومكان

الكوخ الذي نعيش فيه الآن سنتصب رافعات حديدية في مرفأ قذر تملأ وتقرغ السفن بكافة أنواع

القذارات وسترتفع الجدران الإسمنتية في كافة أرجاء الجزيرة وتنتشر أكوام القمامة في كل المنعطفات

والزوايا وستدب أنماط من البشر في كل الشوارع كالجرذان القذرة في الكهاريذ العتيقة وربما يطردوننا

كلياً من الجزيرة وربما نتحول إلى متسولين وربما يختطفك بعض الأوغاد ويقومون باغتصابك في

ركن من أركان الميناء ثم يتركوك بين أكوام الصناديق الخشبية والحديدية جسداً مدمى وروحاً

ممزقة.

-أي. .

أنت سوزان واتكأت بيدها اليسرى على كتفي فتوقفت عن الكلام وسندتها متسائلاً :

-ماذا حصل ؟

-رجلي.

أجابت وهي تنثي رجلها اليمنى ممسكةً إياها عند الكاحل وقد تشنجت ملامح وجهها ألماً.

انحنيت لأرى ماذا حصل فإذا بالدم ينفر من كاحلها وعلبة سردين فارغة غطاؤها مرفوع إلى الأعلى

مرمية خلف قدميها، وقد كانت بمثابة الدليل القاطع على ما كنت أقوله قبل قليل فتابعت :

- هل شاهدت بأم عينيك؟! إنها مجرد سفينة مرت على مسافة بعيدة وفوق

ظهرها مجموعة صغيرة من البشر، خلفت وراءها القمامة، فتخيلي ما الذي

سيحصل لو أننا أرشدنا الدببة إلى كرمانا ؟

ثم توقفت عن الكلام مجدداً عندما ارتمت بيننا زجاجة شفافة كان في داخلها قصاصة من الورق.

تناولت الزجاجاة ونزعت السدادة الفلينية من فوهتها ثم سحبت ما في داخلها فوجدت لفافتين من التبغ ملفوفتين بالقصاصة الورقية، وهذا ما قدم دليلاً لسوزان كي تعترض على افتراءاتي.

- هل رأيت؟! ليس البشر جميعاً على نفس الشاكلة كما تعتقد، منذ زمن بعيد تشتهي أن تدخن سيكارة لقد أرسلوها لك وكأنهم يقرؤون أفكارك.

لم أدر بما أُرِد على سوزان فقد كانت هذه الرسالة دليلاً قاطعاً ضدي بالفعل وأخذت أقرأ القصاصة بصوت مسموع بناءً على طلب سوزان:

- "عزيزي ... "

لم أسمح لنفسي بقراءة الكلمة التالية على مسامح سوزان واكتفيت بالقول لها:

- "كلمة نابية "

ثم تابعت :

- " إذا كان زورقك قد تاه في البحر أيها الـ . كلمة نابية وإذا كنت الآن تتراقص فوق الأمواج

مثل الـ كلمة نابية فوق الـ كلمة نابية وإذا كنت متأكداً من أنك ستغرق وكانت أمنيتك الأخيرة تدخين

سيكارة فإليك سيكارتين ولكن اعذرنا لأننا لم نضع لك أعواد الثقاب فقد اجتمعت اللجنة الـ . كلمة

نابية وقررت ألا تجعلك تحقق هذه الأمنية... مع التحية وإلى اللقاء في الجحيم " كلمة نابية "

برد حماس سوزان للبشر ولكنها أكدت من جديد وكأنما لكي لا تفقد الأمل :

- إذا كان أحد البشر سيئاً فهذا لا يعني أن الجميع كذلك، ربما يكون أحد أفراد الطاقم فعل

ذلك وليس من الضروري أن يكون الآخرون متفقيين معه.

كنت أعلم أنها ستقول مثل هذا الكلام ولذلك فأنا لم أخبرها بالتواقيع الموجودة تحت الرسالة،

- فأبرزت الرسالة في وجهها :
- انظري . انظري إلى التواقيع ، أكثر من عشرين توقيعاً من جنسيات مختلفة من بينها الدول الخمس دائمة العضوية، إن هذه السفينة أمم متحدة مصغرة. أخذت سوزان القصاصة فقرأتها ثم مزقتها ورمتها في البحر و قالت:
  - مهما و جدت من المبررات لآرائك هذه فإننا بحاجة إلى البشر، لا يمكن العيش في هذا الشكل إلى ما لا نهاية. .
  - فقلت ساخراً وبائساً :
  - لا بد أن غريزة القطيع قد استيقظت في داخلك اليوم.
  - لا . و إنما فكرت قليلاً.
  - بماذا ؟
  - بأن البشر يكملون بعضهم البعض،نحن الآن في أحسن حال وفي غاية السرور ولكن لو أن الزائدة الدودية التهبت لديك ، فماذا سأفعل؟ ثم أردفت دون أن تنتظر الرد:
  - ستموت بين يدي دون أن أستطيع فعل شئ وعندها سأبقى وحيدة فوق هذه الجزيرة فهل هذا ما تطمح إليه.
  - ثم انفجرت باكية و أخذت تشهق مكففة دموعها بعد أن تصورت الموقف مما دفعني لطمأنتها والتخفيف عنها :
  - سيكون ما تريدين يا عزيزتي . ولكن ليس الآن.
  - متى ؟!
  - تساءلت سوزان ماسحة الدمع عن عينيها فأجبت بلهجة و حركات الشاعر :

- عندما يصبح لهذه الجزيرة أسوار منيعة تصون بكارتها.
- لم أفهم. - قالت سوزان- فأخذت أشرح لها :
- سأعلن هذه الجزيرة دولة لها جيش وحكومة ولها سفراء في باقي دول العالم وصوت في الأمم المتحدة، وسأجعلها دولة دائمة العضوية في مجلس الأمن.
- ومن أين ستأتي بالجنود لجيشك هذا أليس من البشر؟! قالت ساخرة فقلت :
- لا .
- ثم وضعت يدي على بطنها وتابعت :
- من هنا.
- وهل تتوقع أن أنجب لك جيشاً كاملاً؟! تساءلت سوزان وقد أخذت ابتسامة ترتسم على شفثيها دلالة على عدم جدية الموضوع فأجبت بلهجة جدية :
- الجزيرة ليست كبيرة إلى هذا الحد..ويكفي لحمايتها أربعون جندياً.
- وهل تعتقد أنني سأتمكن من إنجاب الجنود الأربعة؟
- ولما لا. إذا أكثرت من التوائم؟
- لاحظت سوزان لهجتي الجدية فتساءلت :
- اسمع، هل تتحدث بجد؟
- نعم.
- أكدت لها فابتهلت رافعة يديها للسماء:

- الحمد لله أننا وجدنا فوق الجزيرة.

- لماذا ؟

- لأنك كنت ستكون في مشفى الأمراض العقلية لو علم أحد غيري بالأمر.

قررت الصمت وعدم متابعة الحديث وتوجهت عائداً إلى الكوخ حيث استلقيت على القش وأخذت أحلم وحولت الجزيرة إلى قلعة حصينة في غضون ثوان وكان الفرسان فوق خيولهم يجوبونها ذهاباً وإياباً، كانوا كلهم أولادي وكانت الأمور كلها تسير على ما يرام حين فاجأني الولد البكر برغبته في الزواج فوجدت نفسي مضطراً للإبحار بحثاً عن عروس له وكم تمنيت لو ألتقي حورية تجعلني في غنى عن معشر البشر ولكن ذلك لم يحدث.

في عرس الأخ الأكبر أعرب الجنود التسعة والثلاثون الباقون أيضاً عن رغبتهم في الزواج، ولم يكن هناك مجال للتهرب خاصة أن أخاهم الأكبر حدثهم عن متع لم يعرف عنها شيئاً من قبل، فأمضيت عشرة أعوام في الإبحار بحثاً عن عرائس حتى زوجتهم جميعاً ولكن المصيبة أن بعض أقارب العرائس استوطن في الجزيرة وما لبث أن نشب نزاع على قيادة الجيش قتل خلاله ابني الأكبر وتولى أخوه الأصغر القيادة مكانه ثم وضع جميع إخوته في السجن وعين مكانهم أقارب زوجته، وعندما تدخلت هددني بوضعي معهم واصفاً إياي بالعجوز الخرف، ولم تمض أشهر حتى سيح هو بدمائه على يد الأخ الأكبر لزوجته ثم سيق بي إلى السجن أيضاً مما دفعني لكي أحلم بمليون طن من الديناميت وأنسف هذه القلعة من أساساتها.

ترافق دوي الانفجار الهائل الذي جعل حجارة القلعة تتناثر في البحر مع صرير فرامل القطار الذي توقف على محطة جديدة.

فتحت عيني وتوجهت بنظري على الفور إلى ذلك الرجل الذي يجلس قبالي فكان كعادته يبخلق بعيون جائعة إلى نفس المكان الذي يكشفه الازدحام، وتمنيت لو أتمكن من الوقوف فأدق عنقه ولكنني

تجاهلت ذلك خشية أن أوقظ سوزان واكتفيت بالمعركة البصرية المعتادة التي كان مع مرور الوقت يتمرس فيها فيبيدي مقاومة أكثر ولكن ليس للدرجة التي تسمح له بعدم التراجع، ركزت نظري على بؤبؤيه مباشرة وهو فعل الشيء عينه ولوهلة تهباً لي أن أعيننا تحولت إلى مصارعي سومو يتدافعان لكي يخرج أحدهما الآخر من الحلبة وما لبثت أن أخرجته من الدائرة فتلمل في مكانه وشد قبضته ورفع نفسه قليلاً وكأنه يتهباً لعراك بالأيدي ولكنه عاد وخدم متكئاً على كوعه الذي ألقى به فوق المسند واضعاً رجلاً على رجل وكأنه ينتظر عودتي إلى الحلم لكي يعود إلى سفالته.

دخل إلى العربة رجل جاوز الخمسين و خلفه امرأة دفن جمال شبابها الواضح خلف تجاعيد وجهها، ويبدو من تعلقها بأذيال ثوبه أنها زوجته، كانت نظراتها إليه تدل على مدى حبها وتعلقها به فقد كانت في هذه النظرات تبعية كلبية للرجل الهزيل القصير القامة القميء المنظر الذي كانت تنظر إليه وكأنه جبل شاهق، تأبطت ذراعه فضربها بكوعه أسفل صدرها ممتعضاً مما جعلها تسحب يدها وعلى وجهها ابتسامة، التصقت به فابتعد إلى الخلف قليلاً بحركة تدل على القرف متمتماً بكلمات تدل ملامحه المشمئزة على أنها في غاية البذاءة، كان من الواضح أنه لا يطيقها بل يخجل من وجودها قريبه، تحملها سابقاً لأنها كانت جميلة أما الآن فرميا يتمنى أن تتشق الأرض وتبتلعها، ومع أن الرأي العام قد لا يحب مثل هذا النمط من الرجال الذي يتم وسمهم بعدم الأمانة للناس الذين أهدوا لهم زهرة شبابهم فرميا يكون موقف هذا الرجل مثيراً للشفقة، فالمرأة الرائعة الجمال التي كان يعشقها يوماً ما أصبحت عجوزاً متغضنة فقدت شبابها الذي جذبها إليها في السابق، أما هو فما يزال يتمتع بالحيوية كما تقول وجنتاه المتوردتان، ولهذا السبب فقد يكون الرجل في جحيم مستعر يمزقه تأنيب الضمير والصراع بين حبه السابق ونفوره الحالي، فالمرأة كما يقول المثل يجب أن تكون جميلة أما الرجل فيكفي أن يكون أجمل من القرد بقليل، بل ربما تكون البشاعة أحد عناصر الجمال لدى الرجل وهذا ما لا يعرف سره إلا النساء.



أعرف رجلاً ربما كان القرد أجمل منه بقليل ولا أبالغ إن قلت ذلك، فقد كان كثيف الشعر له صلعة جانبية تبعث على النفور، رأيت في حياتي الكثير من الصلعات وكانت كلها تنقسم بين أمامية وخلفية أما الصلعة الجانبية فلم أرها إلا في رأس ذلك الرجل، اعتقدت في البداية أنها نتيجة حرق أو مرض ما ولكنني بعد أن تعرفت عليه عن قرب توضح أنها صلعة عادية لا تختلف عن باقي الصلعات في شيء، وكان هو يزيد لها نفوراً باستقدام الشعر من المناطق المحيطة ونفثه فوقها بشكل يثير الازمئزاز. لم أعد أذكر أكان في عينيه علامات فارقة أم لا، ولكنني مدى الحياة سأظل أشعر بالقرع كلما تذكرت ذلك المربع الذي يحتوي على أنفه وفمه وشاربيه فقد كان ينخر بشكل دائم، وكان شارباه يتألفان من زغب ناعم بديا على شكل خطين واهيين تفصل بينهما مساحة خالية رعاهما منذ سنين لكي لا يقال بأنه أجرودي، وباختصار فانه لم يكن أجمل من القرد أبداً، ولن أتعلم في الوصف أكثر من ذلك، ولكن لكم ما تتخيلون من المناظر المقرفة أثناء طعامه وشاربه ولن تتجاوزوا حدود الواقع.

طبعه كان خجولاً، يطرق دائماً بالأرض ونادراً ما يتحدث، وإن تحدث فغالباً ما يتلعثم شاعراً بعقدة النقص التي تولدت لديه بسبب شكله القبيح، ولكن ورغم هذا القبح المنقطع النظير فإن كازانوفاً لو تسنى له أن ينهض من قبره لمت غيظاً عندما يشاهد كيف ترتمي النساء عند قدمي هذا الرجل، ولو كان ذا نعمة لتبادر إلى الذهن أنه ربما يغدق عليهن ولكنه لم يكن سوى عامل في معمل الأحذية، له أربعة أطفال أشباه حفاة وأشباه عراة ونادراً ما لا ينامون جياً، وكانت له زوجة رغم الولادات الأربع والجنين الذي في رحمها والإهمال الكامل في أناقته، فإن الكثير من الرجال لن يتوانوا عن الركوع عند قدميها، وقد حاول الكثيرون إغراءها مستغلين فقر زوجها وسوء حاله ولكنها كانت في كل مرة تثبت أنها متبينة به.

كان يقف طوال نهاره خلف مقص آلي للجلد، ولهذا فقد كانت تفوح منه رائحة الجلود التي عشتت في مسام جلده، ولكن دون أن تنفر منه النساء، وحدث أن استقدم المعمل آلات فرنسية مستبدلاً إياها

بالآلات القديمة التي لم تعد تفي بأغراض الإنتاج فأوفد مجموعة من عماله إلى فرنسا للتدريب على هذه الآلات، وكان صاحبنا من بين العمال الموفدين في دورة لمدة شهرين، غير أنه بعد أن قضى مع رفاقه أسبوعاً اختفى عدة أيام ظهر بعدها تتأبط ذراعه امرأة فرنسية كانت زوجته الجديدة، وأعلن أنه سيبقى في فرنسا وأنه سيحصل قريباً على إقامة وأن زوجته قد أمنت له عملاً. أما كيف تعرف بها وتفاهم معها وقام بجميع الإجراءات رغم جهله بجميع اللغات الأجنبية جهلاً تاماً فلا أحد يعرف، وشاهد العيان الوحيد الذي رأى اللقاء الأول بينهما هو أكثر دهشة بين الجميع، وحسب ما يروي فقد كانا يتجولان مساءً في أحد شوارع الضاحية الباريسية التي يجرون فيها دورتهم عندما مرت الفتاة على دراجة آلية تدفع أمامها صندوق مثلجات وعندما وصلت إليهما قامت بالتوقف ودون أن يطلب منها أحد ذلك فتحت الصندوق وناولت قطعة مغلفة بالشوكولا إلى صاحبنا الذي أخرج نقوداً ليدفع الثمن، وعندما مد لها القطع النقدية قامت بدفع يده إلى الخلف رافضة قبض الثمن مما دعا شاهد العيان المذكور إلى أن يضرب على صدره ملمحاً أنه أيضاً يريد قطعة مثلها مردداً كلمتين على إحداها تكون المقصودة. ولكنها طلبت منه نقوداً مقابل ذلك مما أثار استياءه لهذا التمييز الذي لا مبرر له.

مرسي بكو.

قال صاحبنا بلسانٍ ثقيلٍ فطوقت الشابة رأسه بذراعها وشدته نحوها قائلةً كالصائم الذي يجلس إلى مائدة شهية وضاق ذرعاً بانتظار موعد الإفطار فقرر إفساد صيامه:

- دون موا امبيزيه.

- امبيزيه إمبيزيه.

قال صاحبنا غير مكترث بالأمر وكأنه يمنحها شرفاً عظيماً فطبعت على شفثيه قبلةً طويلةً ثم تراجعته إلى الخلف متأملة إياه وكأنها اكتشفت الأعجوبة الثامنة من أعاجيب الدنيا، ثم دنت بشفثيه من شفثيه مرة أخرى.

-دي امبيزيه.

وطبعت قبلة ثانية ثم أخذت تعدّ وتطبع القبل:

-تروا. . كاتغ. . سينك. . سيس...

فقام هو من باب المداعبة بالجلوس خلفها على الدراجة فانطلقت إلى الأمام تاركةً رفيقه وحيداً مصاباً بالخذلان، والدهشة تسيطر عليه.

عاش الرجل مع زوجته الجديدة في الشقة المؤلفة من غرفة واحدة و أرسل إلى زوجته الأولى التي لم تكن تعلم بالأمر بعد، رسالة طلب منها خلالها أن تجري له معاملة الاستقالة في المعمل وأن تتدبر أمر التعويضات التي تترتب عليه بسبب الاستقالة ومغادرة الدورة، وتفرغت زوجته الأولى أربعة أشهر كاملة منتقلة بين الدوائر والمحاكم في ملاحقة معاملاته، وكانت تطلب النقود ممن تعرف وممن لا تعرف، تارة على شكل صدقة وتارة بالفائدة إلى أن أنهت كل شيء وبقي فقط إصدار الحكم الذي سيبرئ ذمته. ولكنها عندما علمت بأمر زواجه باعت كل ما تملك لكي تؤمن المبلغ المطلوب من أجل السفر إلى فرنسا، وأحدثت إرباكات جمة في عمل السفارة الفرنسية حتى حصلت على تأشيرة دخول إلى الأراضي الفرنسية ثم سافرت مع أولادها الأربعة على ظهر باخرة.

عندما فتحت زوجته الفرنسية الباب فوجئت بامرأة مسعورة تدفعها إلى الداخل وتلقي بها أرضاً ثم ترقع على صدرها وتتهال عليها ضرباً، أغلق الرجل الباب وحاول فك الاشتباك ولكن دون جدوى فجلس إلى طاولة قرب النافذة مستنداً على حافتها بكوعيه دافناً رأسه بين راحتيه منتظراً نهاية المعركة التي لم تنته إلا بعد أن خارت قوى المرأتين، فنهض وتساءل بغضب مخاطباً زوجته الأولى :

- ما الذي جئت تفعلينه هنا ؟

فصغته ثم شتمته وطلبت منه أن يطلق الفرنسية على الفور، أما الفرنسية فقد طلبت منه أن يطرد زوجته الأولى حالاً.

رفض صاحبنا فكرة الطلاق كلياً وأشعل سيكارة وأخذ ينفث دخانها في هواء الغرفة التي لفها الصمت لدقائق أعلن بعدها عن اعتذاره للمرأتين وحمل نفسه المسؤولية كاملة عما حدث وأكد أنه لن يحقد على أي واحدة منهما إذا ما هي طلبت الطلاق، ولكنه لن يسمح لنفسه بطلاق واحدة بناءً على طلب الأخرى، ولكن كليهما رفضت الفكرة رفضاً كلياً مما جعله يفقد السيطرة على أعصابه وأخذ يضرب رأسه في الحائط كمخرج وحيد من المأزق الذي وضع نفسه فيه، ورغم تدخل المرأتين في محاولة لإيقافه إلا أنه لم يفعل ذلك قبل أن تنزف الدماء من رأسه، فقامتا بالتعاون على لف رأسه بالضماد وقد سيطر القلق عليهما بينما صمت هو وأشعل سيكارة واستدار نحو النافذة وأخذ يراقب الشارع وكأنه لا يود رؤيتهما، وبعد صمت كان على واحد من الثلاثة أن يقوم بقطعه، أعلنت الفرنسية أنها لا تمنع أن تعيش الزوجة العربية معها، التفت هو إلى زوجته الأولى وأعلمها بما اقترحته الثانية فوافقت، فذهب وأحضر الأولاد من المكان الذي أودعتهم فيه بينما قامت الزوجة الثانية بتحضير السقيفة وحولتها إلى غرفة نوم.

تحولت المرأتان إلى صديقتين حميمتين فأخذتا بالتناوب تخرجان الأطفال الأربعة للنزهة، كل منهما تخلي البيت للأخرى للبقاء مع الزوج المحظوظ.

بعد عام كان عدد الأطفال قد ازداد إلى سبعة فقد أنجبت الزوجة الأولى طفلاً جديداً بينما أنجبت الثانية توأمًا، ولا تزال المرأتان تعيشان معاً حتى يومنا، وقد تحولتا إلى مطلقتين بعد أن خطفته امرأة ثالثة عاش معها عدة أشهر قبل أن تخطفه امرأة رابعة فتخفي آثاره معها.

- كفى. كفى. . اتركي ذراعي عليك اللعنة. . لقد اخترعوا مقبض من أجل الأغبياء الذين يركبون المترو.

صرخ الرجل القبيح في وجه زوجته التي عادت لتأبط ذراعه من جديد، فأوقف تداعياتي وأعادني

إلى عربة المترو.  
ابتلعت المرأة الإهانة بهدوء وطيبة لا تخلو من الأمومة وأمسكت بالمقبض متحاشية العيون التي  
اتجهت نحوها.  
استنفدت الجزيرة أحلامها فلم أعد إليها وإنما أخذت أفكر بطريقة عملية، وبدأت أخطط لما علي فعله  
بعد أن تستيقظ سوزان.  
تصورتها تخرج من محطة المترو فلحقت بها واستوقفتها ولكنني لم أدرك ما أقول لها وعندما  
تساءلت :

- هل من شيء ؟

قلت بإحراج :

- لا..

تابعت سيرها فلحقت بها مرة أخرى واستوقفتها من جديد

وأعلنت لها بصراحة:

- أحبك.

فردت بطريقة لا تخلو من التذمر :

- شكراً.

ثم تابعت طريقها.

( هذه ليست طريقة للتعارف. ) صارحت نفسي بعد أن عدت إلى عربة المترو، لا بد من مبرر قوي  
لإيجاد الصلة فربما لا تكون حرارتها نحوي موازية لحرارتي نحوها وربما لا يكون لديها حرارةً أبداً تجاهي  
ولكن هذا لا يعني أن علاقتنا ستنتهي عند خروجنا من عربة المترو.  
دسست يدي في حقيبتها محاولاً سحب وثيقة من وثائقها الهامة من هناك بحيث أعيدها لها على

أنني عثرت عليها في الطريق، بهذا الشكل يمكنني فتح حوار معها على قاعدة إيجابية، ولكن الرجل الذي يجلس قبالي كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليصرخ محاولاً التخلص مني :

حرامي ...

فتحت عيني جافلاً ووجهتها إلى الرجل على الفور ففاجأته قد عاد للتسلل تحت ثوب سوزان، انحرف بنظره متحاشياً عيني بعد أن أدرك أن النتيجة محسومة لصالحه في المعركة فانسحب بأقل الخسائر بينما أعدت أنا ثوب سوزان إلى مكانه، وتخلّيت عن فكرة أخذ الأوراق من حقيبتها، متخلياً عن هذه الطريقة التي تهيأ لي أن فيها من الدناءة ما لا يتلاءم مع نزاهة حبي فأخذت أبحث عن طريقة أخرى للتعرف.

دعوته لتناول فنجان قهوة فاعتذرت متذرة بأنها على عجل من أمرها، ( هذه ليست سوزان التي عرفتها على الجزيرة ) حدثت نفسي ممتعضاً، ولكنني خففت عن نفسي مبرراً بأن سوزان التي كانت على الجزيرة كانت من صناعي وكذلك أيضاً العذابات التي سببتها لي، أما الآن فهي تنتمي إلى عالم الحقيقة ولا بد أنها لن تكون طوع بناني كما كانت عليه في الحلم، غير أنني كنت متأكداً أن مصيرها محسوم وأنها ستكون لي مهما كلف الأمر، فهي المرأة التي أبحث عنها منذ غابر الأزمان والبلدان، وهاهو القدر يرسلها لي في مدينة مترامية الأطراف مكتظة بالسكان في النفق المظلم الذي تعبره تلك العربة المزدحمة، ويجعلها تغفو على كتفي لكي لا يترك لي مجالاً لعدم ملاحظتها.

فكرت كثيراً بطريقة تجعلنا عاشقين فور خروجنا من عربة المترو ولكن جميع الطرق التي توصلت إليها كانت على درجة من السذاجة والخطورة بحيث يمكن أن تنقطع العلاقة مع سوزان بعدها إلى الأبد، فإذا أعريت لها فوراً عن حبي فربما تسخر مني والتأكيد على الأمر بعد مثل هذا الإعلان سيحولني إلى أضحوكة ، فكرت أن أختطفها وأجبرها على الزواج مني عنوة، ولكنني تراجعت عن الفكرة مباشرة، ليس فقط لأن ذلك مستحيل ولكن لما تحتوي عليه الفكرة من الدناءة، فمثل هذا الأمر

لا يعدو كونه جريمة اغتصاب عادية، حتى وإن كانت تحت ظل القانون، وتهرباً من اليأس الذي ولده في نفسي هذا الطريق المسدود توجهت بعيني نحو الرجل الذي كان يجلس قبالي كما لأشغل نفسي بمعركة تبعد عن رأسي هذه الأفكار السوداء، فوجدته قد تسلل من جديد إلى تحت ثوب سوزان، فطعنته بنظرة نجلاء جعلته يئن بصوتٍ مسموع وجعلت ملامحه تتشنج فقرر الانسحاب من المعركة.

أعدت ثوب سوزان الذي كان وكأن مهمته الوحيدة في هذه الحياة هي الانحسار كما لو أنه في حالة مستمرة من الجزر، ثم أخذت أفكر في طريقة أكثر جدوى للحصول على سوزان وتوصلت في نهاية المطاف إلى قناعة راسخة بأنه لا بد من التغلغل البطيء والتحلي بالصبر.

عندما خرجت سوزان من عربة المترو تتبعتها، في الطريق كنت أتأخر عنها تارةً وأتقدمها تارةً أخرى لكي ألفت انتباهها نحوي ولكنني لم أجازف بأي خطوة أخرى خشية أن تبدو العملية مقصودة، دخلت سوزان إلى أحد المباني فتبعتها إلى المدخل وفي المدخل فتحت صندوق البريد الذي يحمل الرقم «أربع وعشرون» فعلمت رقم شقتها، ثم دخلت المصعد وقمت بأولى محاولاتي للبدء بالعلاقة فوقفت في بابه دون أن أسمح له بالتحرك قبل أن تدخل سوزان التي شكرتني على تصرفي هذا، الأمر الذي دفعني للقيام بالخطوة التالية فسألته وسبابتي متهيئة أمام لوحة الأزرار:

- أي طابق يا آنستي ؟

- الرابع.

- أنا على الخامس.

قلت مبتسماً ثم ضغطت على الزر رقم أربعة فأغلق المصعد أبوابه وارتفع بنا إلى الأعلى. نزلت سوزان إلى الطابق الرابع بينما ضغطت أنا على الزر الذي يحمل الرقم خمسة متعمداً متابعة طريقي للتنويه ثم عدت بعد ذلك أدراجي إلى الأسفل. وفي المدخل تأملت صندوق البريد ملياً وكأنني عثرت على وسيلة للاتصال، فكرت أن أرمي لها بالرسائل في الصندوق معلناً عن حبي لها بشكلٍ لا

أتعرض بعده للصدمة إذا رفضته، ولكنني سرعان ما تراجع، فالرسائل المغفلة طريقة جبانة يتبعها المراهقون الذين يخشون إظهار وجوههم بسبب حب الشباب المنتشر فوقها، أما أنا فقد غزا الشيب مفريقي ودعكتني الهزائم بحيث أصبحت لدي الخبرة التي تخولني أن أقترح بشجاعة لا مثيل لها. في السادسة صباحاً من اليوم التالي كنت أقف على الرصيف المقابل للمبنى الذي تقيم فيه سوزان متكئاً على عامود الكهرباء أطلع جريدة أنظر من فوق حرفها بين الحين والآخر لكي لاتقلت سوزان مني عند خروجها.

خرج العشرات من ذلك المبنى ودخل إليه العشرات قبل أن تصبح الساعة الثامنة والنصف حيث خرجت سوزان من فوهته المظلمة، وتوجهت إلى محطة الباص على الرصيف المقابل لي، فتوجهت على الفور إلى تلك المحطة غير عابئ بالإشارة الضوئية الحمراء التي كانت تأمر المشاة بالانتظار، مما جعل شرطي المرور يتلقفني على الجهة المقابلة ففرد ذراعيه جانبا وكان يحمل دفتر مخالفات بإحدى يديه قائلاً :

- توقف توقف .

كان الترولي باص قد وصل إلى المحطة وشاهدت سوزان تصعد إليه فحاولت إثارة المشاعر الرومانسية لدى الشرطي وتوسلته ناظراً إلى الترولي باص:

- اسمع أيها الصديق . . أكاد أفقد المرأة التي أحب.

ولكن الشرطي لم يبد أي تعاطف وقال بلهجة جافة وهو يحزر المخالفة :

- سندفع الغرامة لكي تعبر الشارع بشكل نظامي في المرة القادمة، حتى لا تفقدك المرأة التي

تحب إلى الأبد.

أغلق الترولي باص أبوابه فلم أعد أطيق برودة الأعصاب التي كان ذلك الشرطي يحزر مخالفته بها، فتركته منهمكاً في ذلك وركضت خلف الترولي باص وتعلقت بالسلم المعدني في الخلف على أمل



أن أصعد في المحطة اللاحقة، وقد كان ذلك منظرًا غير مألوف في هذه المدينة مما جعل المارة يتابعون المشهد بتشوق، غير أنني لم أعرفهم اهتماماً يذكر، ولكن سيارة الشرطة التي أطلقت صفارتها في أثري شددت انتباهي كاملاً، كان يفصل بينها و بين الترولي باص سيارة أخرى كانت تحاول إخلاء الطريق لها فلا تفلح بسبب الازدحام، فاتخذت القرار بالهرب قبل أن تتمكن من تجاوزها لأن ذلك سيكون فضيحة قد تكون سوزان شاهد عيان عليها، وعندما اعتقدت أن الترولي باص قد توقف على إشارة ضوئية جديدة قفزت تاركاً السلم، ولكن السيارات التي فرملت بعض الشيء عادت وأقلعت لأن الإشارة الخضراء سرعان ما اشتعلت مما دفع بالسيارة التي تفصلني عن سيارة الشرطة للفرملة وجعلت سيارة الشرطة تصطدم بها من الخلف، لم أفكر مطلقاً بماهية القرار الذي عليّ اتخاذه فقد تضاعفت جرمتي من عبور الشارع بشكلٍ مخالف إلى التسبب في حادث اصطدام قد يكون تسبب في الأذى لأحدهم أو أكثر من ذلك، فكان الفرار هو التصرف الحكيم الوحيد الذي يمكن القيام به، وهذا ما فعلته فأطلقت ساقى للريح وركضت في أقصى سرعتي، ولم أتوقف لالتقاط أنفاسي إلا بعد أن تجاوزت المنعطف، حيث وقفت وانحنيت لاهثاً مستنداً براحتي على ركبتي ولكن النظرات الفضولية المفاجأة التي أطلقها المارة إلى خلفي جعلتني ألتفت فأشاهد أحد رجال الشرطة يركض باتجاهي فتابعته الركض من جديد، حاول بعض المارة اعتراضني تلبيةً لنداء الشرطي الذي كان ينبعث من خلفي فدفعتهم بعنف، وسمعت أحدهم يصرخ عندما ارتطم رأسه بالحائط ورأيت أناساً يتجمعون حوله عندما نظرت إلى الخلف ولكنني لم أعبأ به لأن الشرطي كان قد ازداد اقترباً مني، وعندما فكرت بأن جريمة قتل ربما تكون قد أضيفت إلى قائمة الجرائم التي ارتكبتها اليوم فيما لو أن ذلك الرجل قد مات، ازدادت سرعتي إلى درجة ضاعفت المسافة بيني وبين الشرطي عدة مرات، قادتني قدامي في هذا الهروب إلى الحي الذي أقطن فيه وربما فعلت ذلك بفعل الغريزة التي تدفع الحيوان بالهرب إلى وكره في لحظات الخطر، وأصبحت بالقلق عندما أدركت ذلك فبهذا الشكل أكون قد أرشدت الشرطي إلى عنواني مقدماً له خدمة مجانية،

وهذا ما دفعني إلى اتخاذ قرار خاطئ كدت أندم عليه لاحقاً، فقد انعطفت في مدخل كنت أعرف مسبقاً أنه يؤدي إلى طريق مسدود ولكنني لم أنتبه إلى ذلك إلا عندما وصلت إلى الجدار الذي ينتهي إليه الزقاق، فعدت مسرعاً علني أتمكن من الخروج من الزقاق قبل أن يدركني الشرطي ولكنني ما إن قطعت منتصفه حتى كان الشرطي يركض باتجاهي قادماً من مدخل الزقاق وكان قربي مدخل أحد المباني الذي جاء كنجدة من السماء، فقد كان للمبنى درج خلفي يؤدي إلى زقاق آخر كانت بوابته تقع على سطح المبنى فلم أتردد في الصعود متجاوزاً في كل قفزة أربع درجات إلى أن وصلت إلى سطح الطابق الثالث عشر فتوجهت مباشرة إلى بوابة المدخل الخلفي وشدت مقبضها فوجدتها مقفلة، نظرت إلى الأسفل فكان الشرطي في منتصف طريقه إلي، فترجلت من السطح إلى الطابق الثالث عشر وقرعت أبواب الشقق الأربعة الموجودة فيه فلم يفتح إلا باب واحد مربوط بسلسلة من الداخل وأطلت من خلفه عينا امرأة عجوز سألت بلهجة عدوانية :

- ماذا تريد ؟

فتوسلتها أن تفتح :

- أرجوك . . إنهم يلاحقونني ويريدون قتلي .

ولكنها أغلقت الباب بعنف دون أن تنتظر إتمام كلامي . فتوجهت إلى السطح من جديد علني أتمكن من فتح البوابة ولكنها كانت مصنوعة على هذا الشكل خصيصاً لكي لا يتمكن من فتحها أحد مما جعلني أفقد الأمل في الإفلات من قبضة هذا الشرطي فجلست أنتظر قدومه وليكن ما يكون . بعد لحظات وصل الشرطي إلى باب المدخل المؤدي إلى السطح وتوقف فيه لاهثاً عاجزاً عن التقاط أنفاسه وبالكاد تحمله قدماء فاتكأ على حافة المدخل وقال بصعوبة بالغة :

- باسم القانون . .

ثم توقف محاولاً استرداد أنفاسه للحظات وأردف :

- باسم القانون أنت. . موقف.
- ثم وضع يده على صدره وأخذ يشهق عاجزاً عن الحصول على الأوكسجين، وبعد ذلك استند بظهره على الجدار وجلس محاولاً فتح جيبه الصدري الذي يقع تحت النطاق المشدود بين زناره وكتفه فظننته يريد إخراج دفتر المخالفات، ولكنه طلب مني متوسلاً :
- أرجوك. . الدواء في جيبتي.
- اقتربت منه وفتحت له جيبه ثم أخرجت من داخله مظروفاً كانت الحبوب فيه، فتناول حبة ورمها في فمه فوراً، بينما قررت أنا استغلال الفرصة والانصراف قبل أن يعود إلى وضعه الطبيعي فخطوت من فوق رجليه اللتين مدهما فوق أرض المدخل وسألته :
- هل أنت على ما يرام؟
- فهز رأسه بالإيجاب.
- عن إذنك.
- قلت أنا وأخذت أترجل نحو الأسفل، فحاول النهوض وقد أصابه القلق ومد يده منيهاً إياي :
- انتظر، لا تتصرف، أنت موقف باسم القانون.
- عندما أتحول إلى عبادة القانون سأنتظرك ؟
- قلت له وانطلقت على مهلي بينما عاد هو للاستناد إلى الجدار عاجزاً عن الوقوف.
- في صباح اليوم التالي ركبت الباص وجلست قرب سوزان كنت قد وضعت على رأسي قبعة وفوق عيني نظارة سوداء متكرراً تحسباً للعواقب المحتملة لما حدث بالأمس، ترجلت خلفها وتبعتها فعلمت أنها تعمل بائعة في مكتبة.
- اشتريت عشرة كتب دفعة واحدة، وتقصدت تلك العناوين المشهورة لكي أحوز على إعجابها، وكان ذلك أول حوار مفتوح مع سوزان التي أخذت تشرح لي رأيها في كل كتاب أنتقيه وتمتدح اختياري ولكن

ذلك لم يعجبني حيث أنها كانت تمارس ذلك كبائعة تزوج لبضاعتها وهذا ما كانت تفعله مع كل الزبائن الآخرين مما يدل على عدم تميّز حديثها معي، ولهذا فإنني عندما خرجت من المكتبة أخذت أفكر في طريقة تجعلني أخلق علاقة متميزة معها واكتشفت أنني فعلاً جاهلاً في النساء، حيث أنني أفنقد الوسيلة الناجعة لاجتذابهن، فالطريقة التي أتقدم بها منهن فجأة لدرجة أن العاهرات فقط يقبلن بالتجاوب معي، أما النساء اللواتي يبحثن عن الحب الحقيقي فسينظرن إلي على أنني إما وقح وإما غبي، وعندما عدلت عن استخدام هذه الطريقة الفجة في جذب سوزان تبين أنني لا أنقن أي طريقة أخرى، وإذا اقتصررت إجراءات جذب سوزان على شراء الكتب فإنني سأبيع سروالي دون أن أتقدم خطوة واحدة، ولهذا فقد توجهت على الفور إلى مكتبة أخرى تتاجر بالكتب المستعملة وبعث جميع الكتب التي اشتريتها بأكثر من نصف ثمنها بقليل وقررت ألا أضيع الوقت فذهبت إلى بائع الزهور واشترت ثلاث وردات جورية وقررت تقديمها لسوزان.

دخلت إلى المكتبة فوجدت سوزان ترتب أكداً من الكتب في رفٍ سفلي تُبَتَّ على الجدار الداخلي للمكتبة وظهرها إلى المدخل، فقررت الانتظار حتى تنتهي من عملها فأقدم لها باقتي، مرت دقائق وأنا واقف قرب الباب دون أن تنتهي سوزان من عملها حين اقتربت مني زميلتها التي كانت منشغلة بزيونٍ آخر انصرف بعد شراء حاجته، وسألته بلطفٍ بالغ عن حاجتي، فقدمت لها باقة الورد غامزاً بعيني وأشرت بإصبعي نحو سوزان التي تدير ظهرها لي فأخذت الباقة وشكرتني ثم وضعتها في مزهية على طاولة في الداخل فأدركت أنها اعتقدت أن الباقة مقدمة لها فأصبت بخيبة أمل جعلتني أنصرف قبل أن تستدير الفتاة نحوي مرة أخرى لقول كلمات كانت تنوي قولها.

في صباح اليوم التالي قررت ألا أقدم الوردات إلا لسوزان فدخلت باحثاً عنها بعيني في أركان المكتبة ولكن زميلتها فاجأتني مرة أخرى فاخطفت الوردات من يدي وشمته ثم قبلتني قبلة خاطفة قبل أن أتمكن من قول كلمة واحدة ففكرت بالانصراف والقيام بإهداء باقة الورد لسوزان في اليوم التالي أمام

- باب منزلها ولكن صوت الفتاة من الخلف استوقفني :
- لحظة من فضلك إلى أين أنت هارب ؟
- طرحت سؤالها بلهجة تفيض لطفاً مما جعلني أبتسم لها بينما أردفت هي مخاطبة سوزان :
- سوزان ، إذا سألت عني أحد فأنا سأعود بعد ساعة.
- ارتسمت على وجه سوزان ابتسامة تعني أنها تتفهم مبررات صديقتها وداعتها قائلة :
- يطعم الله الحلاوة لمن لا يملك الأسنان.
- ورغم أن هذه العبارة فيها امتداح لي إلا أنها أثارت الرعب في قلبي فقد تصورت سوزان أن علاقة تربطني بصديقتها، ولكن زمام المبادرة كان قد انفلت من يدي نهائياً حيث تأبطتني زميلة سوزان من ذراعي وشدتني بفرحة غامرة إلى الخارج قائلة :
- أدعوك لتناول القهوة.
- انقذت لدعوتها كما لو كنت متوماً مغناطيسياً لا يسعفني عقلي على استيعاب ما يدور حولي.
- في المقهى ألمحت الفتاة أنني حزت على إعجابها منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى المكتبة ولكنها لم تعرب عن شعورها لأنها اعتقدت أنني أنقصد الحديث مع سوزان فلم تتدخل، أما أنا فقد شعرت بأنني سأتورط في علاقة لا أطمح إليها إذا جاملت هذه الفتاة فقررت مصارحتها:
- أرجو ألا يغضبك الأمر، ولكن باقة الورد في الحقيقة كانت لسوزان.
- فقلت وقد وقف تدفق الدم في وجهها :
- أتحب سوزان ؟
- نعم.
- حسناً لست غاضبة ولكنني أحذرك.
- مما ؟

- سوزان تخدعك فهي على علاقة مع شخصٍ آخر. فأوضحت لها الأمر.
- سوزان لا تخدعني، إنها لا تعرفني أصلاً. فضحكت ضحكة مقتضبة تدل على روح الدعابة عندها :
- ها ها .و كيف عرفت أنها تحبك إذا ؟
- أنا لم أقل أنها تحبني، أنا قلت أنني أحبها وياقة الأمس وياقة اليوم هي من ضمن الإجراءات التي أسعى من خلالها إلى جعل سوزان تحبني.
- صممت الفتاة قليلاً مفكرة في محاولة لاستيعاب الأمر ثم قالت بلهجة مازحة :
- لا تظن أنني أقول هذا لكي تغير موقفك، فأنا قد شطبتك من قائمتي ولن نلتقي بعد اليوم إلا على حسابك، ولكن سوزان تحب رجلاً آخر وهما مخطوبان منذ عامين وبعد أيام عرسهما.
- لم أفهم أكانت تمزح أم تتكلم بشكلٍ جدي فتساءلت :
- أتمرحين ؟
- إنما أقول الجد.
- فعقبتُ :
- هذا غير معقول ؟
- لماذا ؟
- إنه يخدعها.
- أكدتُ أنا وكأن في يدي الدليل القاطع على ذلك.

- أتعرفه ؟
- تساءلت الفتاة محتارة في أمرها فقلت :
- لا . ولكنه وغد وحقير، ألا يوجد نساء على ظهر هذه البسيطة غير سوزان؟
- لم تتابع الفتاة الحوار ولكنها تناولت حقبيتها وأخرجت منها بطاقة قدمتها لي فتساءلت :
- ما هذا ؟
- فردت و هي تنهض :
- عنوان طبيب نفسي. . أنصحك بالذهاب إليه.
- ثم انصرفت دون أن تنتظر ردة فعلي.
- كفني سوء التفاهم هذا الكثير من المعاناة، فإذا تحدثت الفتاة لسوزان بما دار بيننا فإنني قد أتعرض للسخرية ويتزعزع موقفي ولهذا فقد قررت متابعة المراقبة عن بعد وفي نفس الوقت أتعرف على الرجل الذي ستتوجه سوزان بعد أيام وأخذت أفكر بطريقة للتخلص منه حتى قبل أن أتعرف إليه.
- أمضيت شهراً كاملاً لا تغفل فيه عيني عن سوزان، حيث كانت المراقبة تبدأ في الثامنة صباحاً عند خروجها من منزلها وتنتهي في الثانية عشرة أو الواحدة ليلاً عندما تطفئ نافذتها ولم يظهر الخطيب المجهول الذي كان مسافراً على ما يبدو، وذات مساء كنت أبدو فيه مثل رجل البوليس السري في معطفي الأسود الذي ارتديته اتقاءً للبرد، خرجت سوزان من مدخل البناية وصعدت إلى سيارة كانت تنتظرها كما توضح لي لاحقاً، فقد كان هذا خطيبها الذي اتصل بها هاتفياً على ما يبدو وجاء لاصطحابها، أوقفْتُ سيارة تكسي وطلبت منه اللحاق بهما ففعل، استمرت المطاردة ربع ساعة قبل أن تتوقف سيارتهما حيث ترجل منها خطيب سوزان وذهب إلى أحد الأكشاك التي على الرصيف اشترى منه شيئاً ما وعاد ليتابع سيره، فانطلقنا خلفه.
- وعندما انعطفت سيارتها إلى المحلّق الذي يؤدي إلى خارج المدينة أصبت بالقلق ونظرت إلى العداد

الذي كان يشير إلى أكثر من نصف المبلغ الذي أملكه وكدت أطلب التوقف، ولكنني أملت أن تتوقف سيارة سوزان عند أحد المقاهي المحاذية للطريق قبل أن يشير العداد إلى كامل المبلغ الذي في حوزتي، ولكن ذلك لم يحدث فاضطرت للطلب من السائق أن يتوقف عندما أصبح الرقم في العداد مطابقاً لما أملكه، متحاشياً ارتكاب

حماقة ما قد تؤدي بي إلى قسم الشرطة التي قد تكون تبحث عني على أثر ذلك اليوم. في اليوم التالي جاء خطيب سوزان لمرافقتها من المكتبة وتوجها إلى أحد المطاعم لتناول الغداء فلم يغيبا عن عيني لحظة واحدة، وفي المطعم تمعنت في وجهه عن قرب فرأيت كل ملامحه التي تبعث على القرف، لقد كان من الواضح تماماً أنه وغد لا يستحق الجلوس مع سوزان ، كان مثل تمثال برونزي لايملك أي أحاسيس اتجاهها، تهيأ لي أنه يعمل مراقباً لطاولة قمار أو قواداً أو في مهنة أخرى من هذا القبيل، هذا ما تدل عليه حركاته، وفي كافة الأحوال فإنني شعرت بكرهية لامتناهية نحوه، وعندما سقطت عيني على سكين في يد الطاهي الذي يقف خلف الكوة فكرت باختطافها من يده وطعن خطيب سوزان لكي أتخلص منه إلى الأبد ولكنني تصورت الأمر فأبعدت الفكرة عن رأسي، فلو حدث ذلك فإنني سأقبع في السجن ولا أحصل من سوزان إلا على كراهيتها تجاهي.

صنعت له في مخيلتي تهمة تجارة مخدرات جعلته يقع في أيدي الشرطة لكن سوزان سرعان ما كلفت محامياً للدفاع عنه مما يدل على أنها تحبه ولذلك أبعدت الفكرة أيضاً، فلا بد من طريقة تجعل سوزان تكرهه، لا بد من إحداث خلل في العلاقة بينهما ومن أجل هذا الغرض لا تنفع تصوراتي التي لا تتوافق مع الواقع وعلي هنا في هذا المكان اتخاذ القرار النهائي الذي فكرت طويلاً قبل أن أتوصل إليه، أنني جنّت متأخراً وعليّ أن أخرج من حياة سوزان نهائياً وأن أكف عن فتح الأبواب الموصدة في وجهي فدفعت الحساب و انصرفت.

لم أتعرض في حياتي لمثل تلك الآلام التي تعرضت لها في تلك الليلة التي كادت لا تنتهي،



وأدركت فيها أنني لست قادراً على الحياة من دون سوزان، فاتخذت قراراً في تتبع خطيبتها ومحاولة العثور على ثغرة أجعل من خلالها سوزان تتخلى عنه فإن لم أتمكن فإنني سأكتفي برؤية سوزان كل يوم عن بعد للحصول على الجرعة اللازمة لمواصلة الحياة.

راقبت خطيب سوزان عدة أيام فاكتشفت أنه يعمل مدرباً لفريق نسائي بكرة اليد مما جعل الفرع يدب في نفسي فلا بد أن علاقة غرامية تربطه ببعض لاعبات الفريق، ولا بد أن سوزان ستطرده من حياتها عندما تدرك أنه يخدعها. ولكن القدر يعمل لحسابه على ما يبدو فبعد متابعة طويلة لتدريبات ومباريات الفريق توصلت إلى نتائج مخيبة للأمل، إذ تبين أن هذا الوغد يحب سوزان ويخلص لها ولم تكن مئات الصور التي التقطتها له تحتوي على دليل واحد يدينه مما جعل كراهيتي له تتضاعف عدة مرات، ولم يعد أمامي مخرج إلا التوسل للسماء لكي تصدمه سيارة أو يسقط على رأسه نيزك ملتهب فيحطمه ويحوله إلى رماد فقد تحول وجوده إلى عقبة لم أواجه مثلها في حياتي.

أظلمت الدنيا أمام عيني ولم أعد أتسع لروحي التي أخذت تخنتق وفكرت أكثر من مرة بأن أصارحه بأمرى وأعرض عليه صفقة ولكنني عدلت عن ذلك لأنني سأصبح مثار شفقة أو سخرية، فحاولت من جديد طرد سوزان من روحي فأخذت أرسم لها صوراً كريهة في مخيلتي، حتى جعلتها في نهاية المطاف عاهرة يعج جوفها بالقذارة وكدت أبصق قرفاً لما رسمت، وضعت تلك الصورة الكريهة لها أمام عيني ورحت أحاول طردها من عرش روحي بمختلف السبل، كتبت حول ذلك قصائد كثيرة لكي يخيل لي أنني خرجت من هذا الحب منتصراً، قلت:

(سأعود اليوم إلى غرفتي الباردة  
أخلع جواربي و ابتسامتي و جلدي  
ثم اخلع حروف اسمك  
عن عورة روحي

أندثر بغطاء و حدثي  
وأفتح باب أحلامي للموتى و الأحياء  
للريح و للذباب و للكلاب و للقرود السود  
وعندما تأتئين، سوف أصفقه في وجهك.)

ولكن المرأة التي كانت تصورها لي مخيلتي في كل تلك الصور الكريهة لم تكن سوزان وإنما كانت جوليا التي حولتُ حروف اسمها ذات يوم إلى أبجدية تتحدث بها روحي، لأكتشف فيما بعد أنني كنت واحدا ضمن مجموعة من المغفلين الذين كانت جوليا تستغل كل واحد منهم في مجال ما من مجالات الحياة، كنت لا أراها إلا عندما تكون بحاجة إلى تزوير توقيع ما، تارة أزور لها توقيع الطبيب الذي يشرف على منح الإجازات المرضية لموظفي دائرتها، وتارة أزور لها توقيع المدير، وتارة دفتر الدوام الذي كانت تسرقه من الاستعلامات، مع جوليا لم يبق نوع من الوثائق لم أزوره، صديقتها تريد أن تتزوج من أجنبي ليس بإمكانه الحصول على وثيقة (غير متزوج في بلده) فأحضرتها إلى عندي، وبعد شهر كنت أحد المدعويين إلى عرسها، صديقة أخرى كانت تتعرض للاضطهاد من قبل أحد المدرسين في الجامعة أحضرتها أيضا إليّ فزورت توقيعها على دفتر الامتحان وبعد أسابيع كنا نحتفل بتخرجها من كلية الحقوق، لم تبق وسيلة لم أتبعها في تزوير التواقيع إكراما لعيني جوليا، كنت أشعر بنشوة كبيرة وأنا أقدم لها مثل هذه الخدمات، وكانت مهمتي بين مجموعة المغفلين هي ( مزور تواقيع) وقد كانت المرتبة الأدنى بين باقي المغفلين الذين كانوا سبعة دائمين بما فيهم أنا، وذات يوم انقطعت جوليا عن زيارتي فذهبت أتقصى عن السبب فاكتشفت ما اكتشفت وأصبت بصدمة كبيرة، لم تكن جوليا تحتاج إلى مبرر قوي لكي تحشر جذعها تحت جذع أي عابر سبيل، كان يكفيها لفعل ذلك رغبة طفيفة برجل، لقد كانت قطة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، الفرق الوحيد بينها وبين القطة أن القطة تختار الأقوياء من الذكور، أما جوليا فلم تكن تميز بين الرجال، لا يعنيه ان كان الرجل قميئا أم نظيفا، قويا

أم ضعيفا فالمهم أن يكون صالحا للدور الذي خولته الطبيعة القيام به، عندما اكتشفت كل تلك الحقائق المرعبة راودتني رغبة في قتلها انتقاما لكرامتي المهذورة ، ولم أكن لأتوانى عن ذلك لولا أن أحد المغفلين الآخرين لم ينوه لي بأن من الغباء الانتقام من عاهرة، فعلا لقد كانت جوليا عاهرة حقيقية تسدي بخدماتها مقابل خدمات نؤديها نحن لها، أما سوزان فكانت تطل من زاوية مخيلتي على شكل قديسة توجه لي نظرات عاتبة ثم تتصرف.

لجأت إلى التجمعات الصاخبة وتوجهت مع مجموعة من المعارف في رحلة إلى ضفة أحد الأنهار، غير أنه تهيأ لي في الليلة الأولى للرحلة أن الفرصة السانحة للحصول على سوزان ستحصل تحديداً في هذه الأيام فغادرت المجموعة وعدت أدرجي إلى المدينة لكي لا أفوت الفرصة.

فكرت بالانتحار ولكنني خشيت أن تسنح الفرصة لحصولي على سوزان بعد موتي مباشرة، فعدلت عن ذلك، ولكن الفرصة لم تسنح، ولم أهدد إلى طريقة تجعلني أنسى سوزان فاستسلمت أخيراً لقدرتي التيسر واكتفيت بروية سوزان كل يوم واعتبرت ذلك نعمة من الله تمنيت ألا أفقدها رغم أن موقفي على الهامش في هذه العلاقة كان يؤلم عزة نفسي التي كنت أدوسها كلما تفوهت للدفاع عن نفسها، وأكثر ما كنت أخشاه هو أن تسافر سوزان إلى منطقة لا أستطيع السفر إليها أو أجهل عنوانها فقد كان ذلك سيؤدي إلى موتي بالتأكيد أو على أقل تعديل إلى جنوني.

وفي أحد الأيام وأثناء جولتي المعتادة في مراقبة سوزان ألقنت دورية من الشرطة علي القبض واقتادتني إلى المركز حيث خضعت لاستجواب عن سبب مراقبتي لسوزان وخطيبتها وكان هذا الاستجواب بمثابة الصفحة التي أيقظتني من الحلم الثقيل، فنفتت من صدري هواءً تهيأ لي أنه معدني وألقيت نظرة قلقة باتجاه سوزان التي لا تزال نائمة على كتفي فشعرت بارتياح نسبي، ولكن فكرة وجود رجل في حياة سوزان كانت تزعزع أركان هذا الاستقرار.

نظرت إلى الرجل الذي كان يجلس قبالي فكان قد تسلل من جديد، وعندما نظرت إليه انحرف

بعينه مبتعداً وكأنه لص سمع خطوات الحارس الليلي فاخفى منتظراً عبوره ليعود ويتابع خلع القفل الذي كان منشغلاً به.

جعلني ابتعاد الرجل أشعر بالانتصار حيث تأكدت أنه استسلم تماماً لفكرة أن سوزان لي، شعرت بالحدق على مخيلتي التي كانت تفسد علي أحلامي فقادت التيس في البداية ثم قادت الفتاة التي تعمل معها في المكتبة، ثم قادت خطيب سوزان ، فعدت إلى الحلم من جديد وقد أمسكت بعنان مخيلتي بشكلٍ قوي لكي أجمها وأمنعها عن الانحراف، شطبت خطيب سوزان من الحلم فأصبح الحلم أكثر بياضاً، أخذت باقة الورد الجورية من جديد ودخلت إلى المكتبة وعندما اقتربت زميلة سوزان مني لتسألني عما أريد قلت بصوتٍ مسموع وقد أبعدت الباقة عنها :

- أريد أن أقدم هذه الباقة لسوزان.

وقد فعلت ذلك منعاً للالتباس، فقامت زميلتها بتبنيها فحضرت وقدمتُ لها الورد فشكرتني وابتسمت بمودة بالغة، وباقة بعد باقة وجدت نفسي فتى الأحلام الذي تبحث عنه سوزان التي كنت المدعو الوحيد إلى منزلها في الحفل الذي ستقيمه بمناسبة عيد ميلادها.

قمنا بشراء الأغراض اللازمة للاحتفال بعد أن أنهت سوزان عملها في المكتبة وكنت في الصباح قد طلبت من محل الحلوى صنع قالب خاص للمناسبة وحددت الشكل الذي يجب أن يحمله وبعض الإضافات الأخرى وكنت واثقاً من أنه سيشكل مفاجأة سارة جداً لها.

و عندما وصلنا إلى مدخل المبنى أرادت سوزان أن تستوقف المصعد فأصررت أن أحملها على ذراعي وأصعد بها إلى الطابق الرابع على السلم فرضخت لطلبي وطوقت عنقي متمسكة به بينما قمت برفعها على ذراعي، وصعدت بخطوات وثيدة وواثقة حتى وصلت إلى الطابق الرابع حيث أنزلتها عن ذراعي لكي تفتح الباب، ولكنها أثناء بحثها عن المفاتيح في حقيبتها شد القطار فرامله وأصدر صريراً

حاداً أيقظني من الحلم، ثم توقف وأعلنت مكبرات الصوت اسم المحطة مضيئة أنها :  
- المحطة الأخيرة. . الرجاء إخلاء العربات.

أصبت بالخيبة لأن حلمي الجميل لم يكتمل ولكن الذي خفف من وقع الخيبة هو أن ذلك الحلم قد يتحول إلى الواقع، لم تشعر سوزان بوصولنا إلى المحطة الأخيرة وتابعت نومها على كتفي فتعمدت عدم إيقاظها حتى يخرج جميع الركاب فلا تضيق في زحام المحطة في غفلةٍ مني.  
خرج الجميع ما عدا ذلك الرجل الذي يجلس قبالي فقد بقي في مكانه وكأنه كان ينتظر استيقاظها أيضاً، فحدجته بسخط مما جعله ينهض ويتوجه باتجاه الباب، بينما حاولت أنا تنبيهه سوزان:  
- أيتها الفتاة. . لقد وصلنا إلى المحطة الأخيرة. .

و لكن سوزان لم تبدِ رداً فأردفت وقد ربتت على خدها مرتين:  
- يا فتاة. . يا فتاة

و لكنها لم تبدِ تجاوباً، وعندما سحبت كتفي من تحت رأسها ونهضت لأستدير إلى قبالتها ، تهاوت على المقعد مما أثار الخوف في نفسي ، ثم دخلت المرأة المشرفة على المحطة إلى العربة في حالة من العصبية متسائلة عن سبب عدم مغادرتنا للعربة فأوضحت لها الأمر .

و لم تمضِ دقائق إلا وكان فريق الإسعاف متعلقاً حولها، وبعد إجراءات معتادة نهض الطبيب معلناً للجمهور الفضولي الذي اجتمع في المكان :  
- مية منذ ساعة.

أي منذ أن ألفت برأسها على كتفي.

تساءلتُ ممرضة كانت تحرر محضراً إن كان من أحد يمت بصلة للفتاة فأجبت على الفور رافعاً يدي:

- نعم.

وفي نفس اللحظة سمعت صوتاً آخر يجيب بنفس الكلمة فنظرت إلى مصدره وإذا بالرجل الذي كان يجلس قبالي أيضاً يرفع يده وعندما تساءلت الممرضة عن نوع العلاقة قلت :

- زوجتي.

وأكد الرجل الذي كان يجلس قبالي مشيراً إلي :

- زوجته.

- ما اسمها؟

تساءلت الممرضة فأجبت :

- سوزان . سوزان .

وأخذت أبحث عن كنية لها فلم أجد.

و لكن الرجل الذي كان يجلس قبالي أسعفني من نظرات الممرضة المستغربة فأضاف :

- رونييه . سوزان رونييه . ابنة عمي .

صباح اليوم التالي حضرت إلى المستشفى للقيام بإجراءات الدفن فوجدت الرجل الذي كان يجلس

قبالي ينتظر عند باب المستشفى فاقترب مني وصافحني ثم تساءل :

- هل عندك مانع !؟

فأعريت له عن عدم ممانعتي فشاركني إجراءات الدفن حيث حملنا النعش سويةً إلى عربة الموتى

وسرنا خلف النعش إلى المقبرة وأنزلناه إلى الحفرة وعندما أردت دفع التكاليف تبين أنه سبقني إلى ذلك.

ركبنا المترو كلٌ منا إلى مكان ما وفي الطريق قال متحسراً:

- مؤسف . لقد كانت جميلة جداً.

وافقته بإشارة حزينة من رأسي واكتفيت بالقول :

- خسارة. .

خرج الرجل في إحدى المحطات بينما تابعت أنا طريقي إلى غرفتي الخالية تغلف روعي قطعة من الجليد.

المحطة الأخيرة  
( قصه )  
ممدوح حماده





